❊ ذكرى العاقل ❊

❊ وتنبيـه الغافل ❊

لصاحب المواقف المشهورة والمعارف المأثورة

امير العلماء وعالم الامراء

بحرُ المعارف والعوارف والندى
ذو الحكمة العليا الكريم العنصرِ
مولىً يتيهُ به الزمان وحسبهُ
ان لم يفزْ بنظيره مذ اعصرِ

السيد الأَجل ذو المقام السني • الامير

❊ عبد القادر ❊ الجزائري الحسني

قدَّس المولى سبحانهُ سرَّه

واولاهُ الرضوان والمبرَّه

﴿ ترجمة المؤلف قدس سره ﴾

هو الأمام الأوحد والعلم المفرد العارف بالله والتقي الاواه عالم الامراء وامير العلماء الامير الخطير السيد عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري

وُلد في شهر رجب سنة ١٢٢٢ في القيطنة وهي قرية اختطها جده في ايالة وهران من اعمال الجزائر وتربى في حجر والده الى ان بلغ سنّ التميز فحفظ الكتاب العزيز في المدرسة التي اسسها والده في القيطنة وتلقى بها بعض العلوم وكان والده كأسلافه من العلماء الاعلام الذين يرجع اليهم في مشكلات الأحكام . ولما بلغ سنه اربع عشرة سنة سار الى وهران لاستكمال فنون العلوم

وفي سنة ١٢٤١ سافر مع والده منها براً الى الحجاز على طريق مصر وبعد اداء فريضة الحج قصدا المدينة المنورة لزيارة الحضرة الشريفة النبوية ومنها توجها الى دمشق صحبة الركب الشامي ثم سافرا الى بغداد فزارا حضرة القطب الرباني سيدي عبدالقادر الجيلاني « قدس الله سره العزيز » واخذ كل منهما الاجازة بالطريقة القادرية عن الشيخ محمود القادري نقيب الاشراف وشيخ السجادة القادرية ثم رجعا الى دمشق ومنها عاد الى الحجاز فحجا مرة ثانية ثم رجعا الى الوطن وذلك سنه ١٢٤٣

وكان « طاب ثراه » في مدة سفره يتولى خدمة ابيه بنفسه مع كثرة الخدم الذين كانوا معهم

وفي سنة ١٢٤٨ بايعه اهل الجزائر وولوه القيام بامر الجهاد وذلك بعد ان طلبوا مبايعة والده فاعتذر عن قبولها فلما الحوا عليه اشار عليهم بمبايعة ولده المشار اليه لما رأى منه من الكفاءة بما يتعلق بهذا الامر الجلل ولما اشتمل عليه من الاوصاف الجميلة التي تجعل النفوس الأبية خاضعة له ومنقادة اليه « وصورة المبايعة مذكورة في كتاب عقد الاجياد في الصافنات الجياد تأليف حضرة نجله الاكبر الامير الجليل صاحب السعادة محمد باشا » فلما بايعوه قام بامر الجهاد اتم قيام وجمع كلمة المسلمين في تلك الاقطار واحسن السياسة في رعيته مقتفيا آثار اسلافه السادة الادارسة الذين كانوا ملوكاً في المغرب الأقصى و [illegible] والاندلس فتمكن حبه في قلوبهم وبذلك [illegible] في [illegible] ل امره وقد جرت بينه وبين دولة [illegible] [illegible] الطفال استمرت نيفاً وخمس عشرة [illegible] وفي مدة امارته ضرب سكة نقود سماها المحمدية وانشأ معامل للاسلحة والادوات الحربية وملابس للجند وظهرت منه شجاعة خارقة للعادة تحدث بها القاصي والداني ودونها اصحاب التواريخ وكان يتقدم الجيش بنفسه ولا يبالي بكثرة العدو ولا برشق الادوات

الحربية التي اعدتها دولة فرنسا ثم بينما كان مهتماً بذلك اذ
هاجمته العساكر المراكشية من خلفه لاسباب يطول شرحها
وفي اثناء محاربة هذا الجيش رأى ان الثبات لمقاومة هاتين
الدولتين العظيمتين لا سبيل اليه فجنح الى السلم ثم فاوض اعيان
مَنْ كانوا معه من المهاجرين المجاهدين في ان يستأمن دولة
فرنسا لنفسه واهله ومن يتبعه من قومه على ان يحملوه الى
الاسكندرية او عكا من ارض الشام فوافقوه على ذلك وفي
الحال خابر قائد الجيش الفرنسوي فيما اتفقوا عليه على شروط
قرروها له فاجابه الى ما طلبه واشترطه ثم خصصوا له مركبا حربياً
وحملوه ومن معه وكانوا ينيفون على الثمانين نفساً الى طولون وبعد ستة
اشهر نقلوه الى انبواز فاقام بها اربع سنين وستة اشهر ولما افضى امر
فرنسا الى نابليون الثالث زار الامير بها واظهر له كل تجلة
واكرام واسف اسفاً شديداً على تاخير الوفاء بانجاز الشروط
الى ذلك الوقت وبعد ان بشره بالتسريح الى بلاد الاسلام
وفرّق على اتباعه عشرين الف فرنك اخذ عليه العهد على ان
لا يرجع الى الجزائر واهداه سيفاً مرصعاً ورتب له في السنة
خمسة الاف ليرة على ان تصرف له مشاهرة وكفله على ذلك
حضرة مولانا السلطان العظيم الشان السلطان عبدالمجيد خان ثم
ركب الامير ومن معه مركباً حربياً وسافر الى الاستانة العلية

فتلقاه بعض الوزراء على المينا ومعهم العجلات السلطانية والخيول الجياد وذهبوا به الى المابين الهمايوني وتقابل مع حضرة السلطان المشار اليه فاحتفل بـه احتفالاً عظيماً وعامله بما يليق بمثله واكرمه غايـة الاكرام وانعم عليه بدار عظيمة في مدينة بروسة بما اشتملت عليه من الاثاث والرياش فسكنها مع آله وحشمه واقبل على بث العلم وافادة الناس

وفي سنة ١٢٧٠ ذهب الى الاستانـة ومنها الى باريز ثم رجع الى بروسة وحصل له في هذه الحركة اقبال عظيم واحتفال جسيم

وفي سنة ١٢٧١ عزم على مبارحة بروسة لتوالي الزلازل الهائلة بها فاختار الاقامة بدمشق فاتى اليها فتلقاه اهلها باحتفال عظيم وانزلته الدولة العلية في احسن دار

وفي سنة ١٢٧٣ توجه لزيارة بيت المقدس والخليل ثم رجع الى دمشق واقبل على قراءة الكتب العلية كالبخاري ومسلم وكان قسمٌ من دار الحديث قد استولى عليه بعض الاجانب فسعى في استخلاصه منه ببذل اموال طائلة

وفي سنة ١٢٧٧ وقعت الواقعة المشهورة في ذلك التاريخ فبذل الامير جهده في اسعاف المسيحيين قياماً بما يوجبه امر الدين ولشجاعته وحسن تدبيره « قدس سره » تيسر انقاذ الوف

عديدة منهم فاهدته الدولة العلية وسائر الدول العظام علامات الشرف من الدرجة الاولى ثم سافر الى حمص وحماه فزار في حمص اسد الله سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه ورجع الى دمشق

وفي سنة ١٢٧٩ قصد البلاد الحجازية واقام بها مدة سنة ونصف مقبلاً بها على العبادة والخلوة والحج والاعتمار وحصل له هناك فتح عظيم اشار اليه في قصيدته الرائية التي مطلعها

أمسعود جاء السعد والخير واليسر
وولّت ليالي النحس ليس لها ذكرُ

وفي سنة ١٢٨١ توجه الى الاستانة لزيارة ساكن الجنان السلطان عبدالعزيز خان والسعي في اسعاف من نسبت اليهم الواقعة المنوه عنها وتخفيف الجزاء فاجتمع به واكرمه غاية الاكرام واهداه الوسام العثماني من الدرجة الاولى وهو اكبر وسام في ذلك العصر واسعفه بمطلوبه ثم توجه منها الى باريز لمقصد نفسه فكان له الفضل في المسألة بدءًا وعودًا

وقد زاده حينئذٍ الامبراطور نابليون الثالث على مرتبه السابق الفين وخمسمائة ليرة وكان له فرط شغف به لمكارم اخلاقه ثم توجه من باريز الى لندرا فاحتفلوا به غاية الاحتفال ثم عاد الى الشام ومن ذلك الوقت قويت المناسبات بينه وبين ملوك اوربا والرؤساء المشهورين هناك فكان ذلك وسيلة لقضاء

حوائج المسلمين الذين هم في مستعمراتهم وحصل لهم بذلك من المنافع ما لا يوصف

وفي سنة ١٢٨٦ دعي الى مصر لحضور الاحتفال بافتتاح خليج السويس الذي دُعي اليه ملوك اوروبا وامراؤها فذهب اليه ثم رجع الى دمشق

وفي سنة ١٢٨٨ ارسل نسخة من الفتوحات المكية مع عالمين جليلين الى قونية لمقابلتها وتصحيحها على نسخة موجودة هناك بخط مؤلفها الشيخ الاكبر قدس الله سره وبعد تصحيحها بكل اتقان قرأها على بعض الخواص من العلماء فحصل لهم بذلك نفع عظيم

وفي منتصف ليلة السبت التاسع عشر من شهر رجب الفرد سنة ١٣٠٠ انتقل هذا الامير الجليل الى رحمة الله تعالى في قصر الكائن قرب قرية دمر التي تبعد عن دمشق مسافة ساعة بعد ان مرض نحو خمسة وعشرين يوماً وكان مشتغلاً فيها بالمراقبة والذكر ولم تبدُ منه شكوى وانما كانت تلوح عليه سيماء الاستبشار بلقاء الله تعالى والرضى باحكامه وقد تولى غسله وتكفينهُ نزيله الشيخ عبد الرحمن عليش احد علماء الازهر وحمل نعشه المبارك على اكتاف الرجال الاماجد الى الجامع الاموي وبعد الصلاة عليه شيعه اهل دمشق بغاية الاحتفال والتعظيم ولم يزالوا سائرين بجنازته وعليها من الهيبة والوقار ما تخشع له القلوب

وتشخص له الابصار الى ان اوصلوه الى حجرة الشيخ الاكبر فدفن بها في جواره ورجع الناس متأسفين على فراقه لمحاسن اوصافه ومكارم اخلاقه

وقد خلف رحمه الله عشرة من البنين اكبرهم الامير محمد ويليه الامير محي الدين والامير الهاشمي والامير ابراهيم والامير احمد والامير عبدالله والامير علي والامير عمر والامير عبد المالك والامير عبدالرزاق وخلف ايضاً ستاً من البنات وزوجة واربع امهات اولاد

وقد كان (طيب الله ثراه)مربوع القامة معتدل الجسم ابيض اللون اسود الشعر كث اللحية اقنى الانف اضبط (اي يعمل بيساره جميع ما يعمله بيمينه) اشهل العينين يمشي الهوينا وكانت له مبرات كثيرة من جملتها انه كان يوزع مائتي ليرة في كل شهر على العلماء والفقراء فضلاً عما كان ينفقه في وجوه البر وكان خرجه اكثر من دخله الوافر حيث توفي وعليه ديون اقتضت بيع بعض املاكه لوفائها وهذا اكبر دليل على وفور كرمه وكان يعظم اهل العلم حسن المسامرة لطيف المعاشرة لا يرد سائلا ولا يخيب قاصدا وكانت رسائله تترى الى سائر الجهات بحيث لو جمعت لبلغت عدة مجلدات لا ينسى احداً من الذين تعودوا احسانه ولم يكن عنده شيء من الكبر الذي تنزهت عنه نفسه المطمئنة ولا يتأنق في

الملابس والمطاعم لتحققـــه بالزهد والتواضع وعدم النظر الى زينة الحيوة الدنيا وله رحمه الله خلوة بمنزله في قرية اشرفية صحنا باكان يتحنث بها في شهر رمضان مع العزلة التامة وكان مدة عمره يتعبد على مذهب الامام مالك رضي الله عنه وكان يتنافس بزيارة الفضلاء ويتمثل باشعار الادباء وكانت تاتي اليه من كل فج ويكافئ عليها بالجوائز العظيمة حتى جمع له من القصائد التي مدح بها في حياته ديوان ضخم ورثاه الشعراء البلغاء بابكار افكارهم

وله «احسن الله اليه» تآليف مفيدة اشهرها المواقف في التصوف وتعليق على حاشية لأحد اجداده في علم الكلام والمقراض الحاد وهذه الرسالة المسماة ﴿ ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ﴾ ومن اطلع على هاته المؤلفات عرف قدر فضله وسعة علمه وكانت له سليقه جيدة في نظم القريض وكان يتمثل في المعارك ببيت من قصيدته الحماسية المشهورة وهو

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي ۞ وبي يحتمي جيشي وتحرس ابطالي

هذه لمعة من ترجمة حياة هذا الامير الشهير ماخوذة عن اوثق المصادر وقد جمع له (طاب ثراه) ترجمة عظيمة في نحو مجلدين ضخمين قدس الله تعالى سره واغدق عليه سحائب الرضوان والمبرة بجاه جده خاتم الرسل الكرام عليه وعليهم افضل الصلاة واتم السلام

ذكرى العاقل

و

تنبيه الغافل

لصاحب المواقف المشهورة والمعارف المأثورة

امير العلماء وعالم الامراء

بحرُ المعارف والعوارف والنَّدى

ذو الحكمة العليا الكريم العنصرِ

مولىً يتيهُ به الزمانُ وحسبهُ

ان لم يفزْ بنظيره مذ اعصرِ

السيد الأَجل ذو المقام السني • الامير

عبد القادر الجزائري الحسني

قدَّس المولى سبحانهُ سره

واولاهُ الرضوان والمبرَّه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

يقول عبد القادر بن محيي الدين بن المصطفى بن محمد
ابن المختار بن عبد القادر بن احمد بن عبد القادر
ابن احمد بن محمد بن عبد القوي بن علي بن احمد بن عبد
القوي بن خالد بن يوسف بن احمد بن بشّار بن احمد
ابن محمد بن مسعود بن طاوس بن يعقوب بن عبد القوي
ابن احمد بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله
الكامل بن الحسن المثنّى بن الحسن سبط الرسول
ابن علي بن ابي طالب بن عبد المطلب
ابن هاشم وامّ الحسن فاطمة بنت محمد
رسول الله بن عبد الله
ابن عبد المطلب
ابن هاشم

الحمد لله رب العالمين . ورضي الله تعالى عن العالمين . اما بعد فانه بلغني ان علماء بريز . وفقهم العليم الحكيم العزيز . كتبوا اسمي في دفتر العلماء . ونظموني في سلك العظماء . فاهتززت لذلك فرحا . ثم اغتممت ترحا . فرحت من حيث ستر الله علي . حتى نظر عباده بحسن الظن الي . واغتممت من كون العلماء استسمنوا ذا ورم . ونفخوا في غير ضرم . ثم اشار علي بعض المحبين منهم بارسال بعض الرسائل اليهم . فكتبت هذه العجالة للتشبه بالعلماء الأعلام . ورميت سهمي بين السهام

فتشبهوا ان لم تكونوا منهم * أن التشبه بالكرام رباح

وسميت هذه الرسالة ﴿ ذكرى العاقل . وتنبيه الغافل ﴾ ورتبتها على مقدمة وثلاثة ابواب وخاتمة . وفي كل باب فصل وتنبيه وخاتمة

اما المقدمة ففي الحث على النظر وذم التقليد

واما الباب الاول ففي فضل العلم والعلماء · وفيه فصل في تعريف العقل الذي به ادراك العلوم · وتكملة في القوى الاربع التي اذا اعتدلت في الانسان يكون انساناً كاملاً · وتنبيه في فضل ادراك العقل على ادراك الحواسّ وفضلِ مدركات العقل على مدركات الحواس · وخاتمة في انقسام العلم الى محمود ومذموم

واما الباب الثاني ففي العلم الشرعيّ · وفيه فصل في اثبات النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية · وفيه تنبيه في معرفة النبيّ وما يتعلّق بالنبوّة · وخاتمة في المكذبين للانبياء

واما الباب الثالث ففي فضل الكتابة · وفيه فصل في الكلام على كتابات الأُمم ومَنْ وضعها وما ينجرّ الى ذلك · وتنبيه في بيان حروف الكتابة العربية · وخاتمة في احتياج الناس الى التصنيف وما يتعلق به



﴿ المقدمة ﴾

اعلموا انه يلزم العاقلَ ان ينظر في القول ولا ينظرَ الى قائله. فان كان القول حقًا قبله سواء كان قائله معروفًا بالحق أو الباطل. فانّ الذهب يستخرج من التراب والنرجسَ من البصل والترياقَ من الحيّات ويُجنَى الورد من الشوك. فالعاقل يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحقّ بالرجال. والكلمة من الحكمة ضالّة العاقل يأخذها من عند كل من وجدها عنده سواء كان حقيرًا او جليلاً. وأقلّ درجات العالِم ان يتميز عن العاميّ بأمور. منها انه لا يعاف العسل اذا وجده في مِحْجمة الحَجّام ويعرف انّ الدم قذِر لا لكونه في المحجمة ولكنه قذر في ذاته. فاذا عُدمت هذه الصفة في العسل فكونه في ظرف الدم المستقذر لا يَكسِبه تلك الصفةَ ولا يوجب نفرةً عنه. وهذا وَهْمٌ باطل غالب على اكثر الناس فمهما

نُسب كلام الى قائل حسنَ اعتقادهم فيه قبلوه وان كان القول باطلاً . وان نُسب القول الى من ساءَ فيه اعتقادهم ردّوه وان كان حقاً . ودائماً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق . وهذا غاية الجهل والخسران • فالمحتاج الى الترياق اذا هربت نفسه منه حيث علم انه مستخرج من حيةٍ جاهل . فيلزم تنبيهه على ان نفرته جهل محض . وهو سبب حرمانه من الفائدة التي هي مطلوبه فأنّ العالم هو الذي يسهُل عليه ادراك الفرق بين الصدق والكذب في الاقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال لا بأن يكون ملتبساً عليه الحقُّ بالباطل والكذب بالصدق والجميل بالقبيح ويصير يتبع غيره ويقلّده فيما يعتقد وفيما يقول . فان هذه ما هي الاّ صفات الجهال * والمتبوعون من الناس على قسمين . قسمٌ عالمٌ مُسعِدٌ لنفسه ومسعدٌ لغيره وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد ودعا

الناس الى معرفة الحق بالدليل لا بأن يقلدوه . وقسمٌ مهلك
لنفسه ومهلك لغيره وهو الذي قلَّد آباءه واجداده فيما
يعتقدون ويستحسنون وترك النظر بعقله ودعا الناس
لتقليده . والأعمى لا يصلح ان يقود العميان . واذا كان
تقليد الرجال مذموماً غيرَ مرضيّ في الاعتقادات
فتقليد الكتب اولى واحرى بالذم . وإنّ بهيمةً تقاد
افضل من مقلِّد ينقاد . وأن اقوال العلماء والمتدينين
متضادّةٌ متخالفة في الاكثر واختيارُ واحد منها واتباعه
بلا دليل باطل لانه ترجيح بلا مرجّح فيكون معارَضاً
بمثله * وكلّ انسان من حيث هو انسان فهو مستعدّ
لأدراك الحقائق على ما هي عليه لأن القلب الذي هو
محل العلم بالأضافة الى حقائق الاشياء كالمرآة
بالاضافة الى صور المتلوِّنات تظهر فيها كلُّها على
التعاقب . لكن المرآة قد لا تنكشف فيها الصور
لأسباب . احدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل ان

يُدوَّرَ ويُشكَّل ويُصقَل . والثاني لخَبَثه وصدَئه وان كان تامَّ الشكل . والثالث لكونه غيرَ مقابلٍ للجهة التي فيها الصورةُ كما اذا كانت الصورة وراءَ المرآة . والرابع لحجابٍ مُرسَلٍ بين المرآة والصورة . والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورةُ المطلوبة حتى يتعذر بسببه ان يُحاذى به الصورةُ وجهتُها . فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها صور المعلومات كلُّها . وانما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة . اولها نقصان في ذات القلب كقلب الصبيّ فانه لا تنجلي لهُ المعلومات لنقصانه . والثاني لكدورات الاشغال الدنياوية والخَبثِ الذي يتراكم على وجه القلب منها . فالأقبال على طلب كشف حقائق الاشياء والاعراضُ عن الاشياء الشاغلة القاطعة هو الذي يجلو القلب و يُصفّيه . والثالث ان يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة . والرابع الحجاب فان العقل المتجرد للفكر في حقيقة من الحقائق

ربما لا تنكشف له لكونه محجوباً باعتقاد سبق الى القلب وقتَ الصبا على طريق التقليد والقبول بحسن الظن . فأنّ ذلك يحول بين القلب والوصول الى الحق ويمنع ان ينكشف في القلب غيرُ ما تلقّاه بالتقليد . وهذا حجاب عظيم حجب اكثر الخلق عن الوصول الى الحق لانهم محجوبون باعتقادات تقليدية رسخت في نفوسهم وجمَدت عليها قلوبهم . والخامس الجهل بالجهة التي يقع فيها العثور على المطلوب . فأن الطالب لشيءٍ ليس يمكنه ان يحصّله الا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى اذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء فعند ذلك يكون قد صادف جهة المطلوب فتظهر حقيقة المطلوب لقلبه . فأن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تصاد الا بشبكة العلوم الحاصلة . بل كل علم لا يحصل الا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علمٌ ثالث

على مثال حصول النِّتاج من ازدواج الفحل والأُنثى • ثم كما ان من اراد ان يستنتج فرسًا لم يمكنه ذلك من حمار وبعير بل من اصل مخصوص من الخيل الذكر والانثى وذلك اذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم فله اصلان مخصوصان وبينهما طريق مخصوص في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المطلوب • فالجهل بتلك الاصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها بل مثاله ان يريد الانسان ان يرى قفاه مثلاً بالمرآة فانه اذا رفع المرآة قُبَالَةَ وجهه لم يكن حاذى بها جهة القفا فلا يظهر فيها القفا • وان رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينيهِ فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج الى مرآة اخرى ينصبها وراء القفا وهذه المرآة في مقابلتها بحيث يراها ويراعي مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبعَ صورة القفا في المرآة المحاذية

للقفا ثم تنطبع صورة هذه المرآة مع ما فيها من صورة القفا في المرآة الاخرى التي في مقابلة العين ثم تدرك العين صورة القفا · فكذلك في اصطياد العلوم وطلب ادراك الاشياء طرق عجيبة فيها انحرافات عن المطلوب اعجب مما ذكرناه في المرآة · فهذه هي الاسباب المانعة للقلوب من معرفة الحقائق · والا فكل قلب فهو بالفطرة الالهية صالح لادراك الحقائق · وكما ان الشيء يكون حاضراً بين يدي الانسان واذا لم يحرك حدقته من جانب الى جانب تحريكات كثيرة لم يرَ ذلك الشيء فكذلك العقل ما لم يتحرك من معقول الى معقول لم يدرك الشيء على حقيقته · وتلك التحريكات هي المسماة بالفكر ونظر العقل · وكما ان العين الباصرة لا يمكنها ادراك الاشياء الا عند طلوع النيِّرات كالشمس ونحوها فكذلك العقل لا يقدر على ادراك الحقائق دون خطأ الا اذا طلعت عليه انوار التوفيق والهداية من الله تعالى



الباب الاول

في فضل العلم والعلماء

اعلموا ان الانسان من حيث حصوله في الحيّز والمكان فجسم كسائر الاجسام· ومن حيث يتغذى وينسل فنبات· ومن حيث يُحِسّ ويتحرك بالاختيار فحيوان· ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط· وكما انّ الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكرّ والفرّ وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقاً لاجل تلك الخاصية فان تعطلت منه نزل الى مرتبة الحمار فكذلك الانسان يشارك الجمادات والحيوانات في امور ويفارقها في امور هي خاصيته وبها شرفه· فما حصل لهُ الشرف بعظم شخصه فانّ الفيل اعظمُ منه· ولا بشجاعته فأن الأسد اشجعُ منه· ولا لأكلهِ فان الجمل اوسع منه بطناً· ولا لجماعه فأن اخسَّ العصافير اقوى منه جماعاً

وانما شرفُ الانسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم وبها كماله. اذ كمال كل شيء انما يكون بظهور خاصيته التي امتاز بها عن غيره. ونقصانه هو خفاء تلك الخاصية. فبقدر ظهور تلك الخاصية يطلق عليه اسم الكامل. وبحسب سترها فيه يخص باسم الناقص مثلاً الخاصية التي امتاز بها الفرس وهي الحقيقة الفرسية ان يكون شديد العدْو معتدل القوائم في الطول والقصر مدركاً لأشارات الراكب من ارادة الكرّ والفرّ او الهملجة او الحُضر او التقريب. فاذا ظهرت هذه الخاصية قيل فرس كامل. ثم الاعزاز والاهانة تابعان للكمال والنقصان. وخاصيّة الانسان هي معرفة حقائق الاشياء على الوجه الذي هي عليه بحيث يرتفع عن بصيرته حجاب الشك ويتيقن حقائقها منكشفة له. وبكمال هذه الخاصية ونقصانها يفضل بعض افراد الانسان بعضاً الى ان يُعَدّ واحد بألف

ولم ارَ امثال الرجال تفاوتت

الى المجد حتى عُدَّ الفٌ بواحدِ .

والناس الفٌ منهمُ كواحدِ   وواحدٌ كالالف ان امرٌ عنا

ولا شيءَ اقبح من الأنسان مع ما فضله الله به من القدرة على تحصيل الكمال بالعلم ان يهمل نفسه ويُعرِيَها من هذه الفضيلة

ولم أرَ في عيوب الناس شيئًا

كنقص القادرين على الكمال

ولما كان العلم هو كمالَ الانسان كان كل انسان محباً للعلم بالطبع ويشتهيه . ويفرح اذ نُسب الى العلم ولو قليلاً ولو يعلم ان الذي وصفه بالعلم كاذب . ويحزن اذا دفع عن رتبه العلم * ويلتذّ الأنسان بالعلم لذاته ولكماله لا لمعنى آخر وراء الكمال . ولا يخفى على اهل العلم انه لا لذّة فوق لذته لانها لذة روحانية وهي اللذة الخالصة من جميع الشوائب المكدِرات . واما اللذة الجسمانية فهي

عند التحقيق دفع الم . اذ لذة الأكل دفع الم الجوع . ولذة
الجماع دفع الم امتلاء اوعية المنيّ بـه . بخلاف اللذة
الروحانية فانها ألذّ واشهى . ولهذا كان بعض العلماء يقول
عند ما تنحلّ له مشكلات العلوم اين الملوك وابناء الملوك
من هذه اللذة * ومن المعلوم أنّ اللذات بالأضافة الى
الأنسان من حيث اختصاصه بها ومشاركته لغيره
ثلاثة انواع عقليةٌ وجسمانيةٌ مشتركة مع بعض الحيوانات
وجسمانيةٌ مشتركة مع جميع الحيوانات . اما العقلية فالعلم
بحقائق الاشياء اذ ليس يستلذ بها السمع والبصر والشمّ
والذوق ولا البطن . وانما يستلذ بها القلب لاختصاصه
بصفة يعبّر عنها بالعقل . وهذه اللذة اقل اللذات وجوداً
وهي اشرف اللذات . اما قلّتها فلأنّ العلم لا يستلذ بـه
الاّ عالم . وما اقلّ اهلَ العلم والحكمة وما اكثر المتسمّين
باسمهم والمترسمين برسمهم . واما شرفها فلأنها لازمة
لا تزول ابداً لا في الدنيا ولا في الاخرة ولا تُملّ

والطعام يشبع منه فيمل · وشهوة النكاح يفرغ منها فتستثقل · والعلم والحكمة لا يتصوَّر قط ان تملّ وتستثقل · والمال يُسرَق او يحرق · والولاية يُعْزَل عنها · والعلم لا تمتد اليه ايدي السُراق بالأخذ ولا ايدي السلاطين بالعزل · فيكونُ صاحبه في رَوح الأمن ابدا · واما قصور اكثر الخلق عن ادراك لذة العلم فلفساد امزجتهم ومرض قلوبهم لاشتغالهم باتباع الشهوات واستيلائها على عقولهم · فانّ القلب اذا كان صحيحاً لا يستلذّ الا بالعلم فاذا كان مريضاً بسوء العادات استلذ بغيره كما يستلذ بعض الناس اكل الطين وكالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرًّا

ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريض
يجدْ مُرًّا به الماء الزُلالا

واما لقصور فطنتهم اذ لم تخلق لهم الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة الطيور السِمان

ولا لذة العسل ولا يطلب الا اللبن * الثانية لذة يشارك الانسانَ فيها بعضُ الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأَسد والنَمِر وبعض الحيوانات * الثالثة لذة يشارك الانسانَ فيها جميعُ الحيوانات كلذة البطن والفرج وهذه اكثر اللذات وجوداً وهي اخسها ولذلك اشترك فيها كل مادبَّ وتحرك حتى الدِيدانُ والحَشَرات * ولأجل اللذة والكمال الذي في العلم صار الانسان ميلٌ طبيعيٌ الى العلم غالباً لكن من الناس مَنْ ساعده فهمه ومنهم من لم يساعده • واما عدم الميل الى العلم فلأمر عارض كفساد الطبع او بُعد المكان عن الاعتدال • والمقصود من هذا معرفة فضيلة العلم ونفاسته وما لم تُفهَم الفضيلة في نفسها لم يمكن ان يُعلم وجودها صفةً للعلم أو لغيره من الخصال • فلقد غلط من طمع ان يعلم انّ فلاناً حكيم وهو لم يعرف معنى الحكمة وحقيقتها • فالفضيلة مأخوذة من الفضل وهو

الزيادة فاذا تشارك شيئان في صفة واختص احدهما بمزيد يقال فَضَلَهُ وله الفضل عليه مهما كانت زيادةٌ فيما هو كمال ذلك الشيء . كما يقال ان الفرس افضل من الحمار بمعنى انه يشاركه في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكرّ والفرّ وشدة العدْو وحسن الصورة فلو فُرض حمار اختص بسلعة زائدة في ظهره لم يُقَل انه افضل لأنّ السلعة زيادةٌ في الجسم ونقصانٌ في المعنى وليست من الكمال . والحيوان مطلوبٌ لمعناه وصفاته لا لجسمه. فاذا فهمتم هذا لم يخفَ عليكم ان العلم فضيلة ان أخذتموه بالأضافة الى جميع الحيوانات أو اخذتموه بغير اضافة فانه فضيلة وكمالٌ على الاطلاق وبه شرفُ العلماء والحكماء وهو المرغوب فيه المطلوب لذاته لا لغيره . وغير خافٍ عليكم ان الشيء المرغوب فيه ينقسم الى ما يطلب ويرغب فيه لغيره . والى ما يطلب ويرغب فيه لذاته . والى ما يطلب ويرغب فيه لذاته ولغيره جميعاً . والذي يطلب

لذاته اشرف وافضل · والمطلوب لغيره الدراهم والدنانير فانهما حجران لا منفعة لهما · ولولا أنّ الله سهَّل قضاء الحوائج بهما لكانا والحجرَ بمنزلة واحدة لانهما لايدفعان جوعاً ولا برداً ولا حرًّا بأنفسهما · واما الذي يطلب لذاته فالعلم فانه لذيذ في ذاته · واما الذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن فان سلامة الرِّجْل مثلاً مطلوبة من حيث انها سلامة البدن عن الألم · ومطلوبة للمشي بها والتوصل الى الحاجات *ومن دلائل شرف العلم ولوازمه احترام العالم في الطباع حتى ان اغبياء الناس واجلافهم يصادفون طباعهم مجبولة على توقير شيوخهم لاختصاصهم بعلم زائد مستفاد من التجارب والبهائم بطباعها توقّر الانسان لشعورها بتميز الانسان بكمال مجاوز لدرجاتها واذا ثبت فضيلة العلم كان تعلمهُ افضل وبيانه ان مقاصد الخلق مجموعة في انتظام الدين والدنيا ولا نظام للدين الا بانتظام الدنيا وليس ينتظم

امر الدنيا الا بأعمال الادميين • واعمالهُم وصناعاتهم وحرفُهم تنحصر في ثلاثة اقسام . احدها اصولٌ لا قِوام للدنيا الا بها • وهي اربعة الزراعة وهي للطعم . والحياكة وهي للملبس . والبناء وهو للمسكن . والسياسة وهي للتألّف والاجتماع والتعاون على اسباب امر المعيشة * القسم الثاني ما هي مهيئة لكل واحد من هذه الصناعات وخادمة لها كالحِدادة فانها تخدم الزراعة وجملةً من الصناعات بِأعداد آلاتها . وكالحِلاجة والغزل فأنها تخدم الحياكة بأعداد عملها * القسم الثالث ما هي متممة للاصول كالطحن والخَبز للزراعة وكالقِصارة والخياطة للحياكة وذلك بالاضافة الى قوام أمر العالم الارضيّ • مثلُ اجزاء الشخص بالاضافة الى جملته فانها ثلاثة اقسام • اما اصول كالقلب والكبد والدماغ • واما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة • واما مكملة لها ومزيّنة كالأظفار والحاجبين * واشرفُ

الِصناعات أصولها السياسة · ولذلك تستدعي هذه الصناعة
من الكمال في من يتكمل بها ما لا تطلبه سائر الصناعات ·
فلذلك يستخدم صاحب هـذه الصناعة جميعَ اصحاب
الصناعات* والسياسة على مرتبتين سياسة الملوك
والسلاطين وتصرُّفُهم في الخاصة والعامة ولكن في ظواهرهم
فقط لا في بواطنهم · والثانية سياسة العلماء وتصرُّفُهم في بواطن
الخاصة ولا تنتهي قوتهم الى التصرف في ظواهرهم بالالزام
والقهر · وشرف العلوم والِصناعات يُدرَك بثلاثة امور
اما بالالتفات الى الآلة التي يُتوصّل بها الى معرفتها
كفضل العلوم العقلية على العلوم اللغويـة اذ تُدرك
الحكمة بالعقل واللغة بالسمع · والعقل اشرف من السمع ·
وامّا بالنظر الى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة
وامّا بالنظر الى المحلّ الذي فيه التصرف كفضل الصياغة ·
على الدباغة اذ محل احدهما الذهب ومحل الآخر جلدُ
الحيوانات الميتة * وغير خافٍ ان العالِم متصرفٌ في

قلوب الناس المتعلمين * ويُدرَك شرفُ العلم مطلقاً من حيث هو علمٌ بشيئين • احدهما شرف الثمرة والثاني قوة الدليل • وذلك كعلم الاحكام الدينية الشرعية وعلم الطب • فان ثمرة علم الدين السلامة في الدار الآخرة وهي الحياة الأبدية • وثمرة الطب السلامة في الدنيا وهي سلامة بدنية منقطعة • فيكون علم الدين اشرف لأنه سببٌ لسلامةٍ أبديـة لا تنقطع • الثاني كعلم الحساب وعلم النجم • فان علم الحساب اشرف لوثاقة ادلته وقوتها واذا نُسب الحساب الى الطب كان الطب اشرف باعتبار ثمرته والحسابُ أشرف باعتبار قوة ادلته وصحتها • وملاحظة الثمرة اولى • ولذلك كان الطب اشرف وان كان اكثر الطب بالظن

﴿ فصلٌ في تعريف العقل ﴾

اعلموا ان العقل منبعُ العلم واساسهُ ومطلَعه • والعلم يجري

من العقل مجرى الثمر من الشجر والنور من الشمس والرؤية من العين • وكيف يخفى فضل العقل واعظم البهائم بدنًا واشدّهم ضراوةً واقواهم سطوة اذا رأى صورة الانسان هابَهُ لشعوره بفضله عليه واستيلائـه بسبب ما خُصَّ به من ادراك الحيل * واسم العقل يُطلق على اربع معان بالاشتراك • الاول الوصف الذي يفارق الانسان بـه جميعَ البهائم وهو الذي استعدّ به الانسان لقبول العلوم النظرية • الثاني هي العلوم التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأَن الاثنين اكثر من الواحد وان الشخص الواحد لا يكون في مكانين في آن واحد . وتسمية هذه العلوم عقلاً ظاهر فلا تنكر• الثالث علوم تستفاد من التجارب بمجاري الاحوال فان من جرّب الامور وهذّبهُ تخالُفُ الاحوال يقال انه عاقل في العادة . ومن لا يتصف به يقال انه غبيٌّ جاهلٌ . وهذا نوعٌ آخرُ من العلم يسمى

عقلاً • الرابع ان تنتهي قوة تلك الغريزة الى ان يعرف الانسان عواقب الامور ويقمع الشهوة الداعية الى تناول اللّذة المضرة ويقهرَها • فاذا حصلت هذه القوة يسمى صاحبها عاقلاً من حيث ان اقدامه وتأخره بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب • وهذه المعاني الاربعة كلها من خواص الانسان • واللفظ العقل موضوعٌ في الحقيقة لتلك الغريزة • واطلاقه على العلوم مجاز من حيث انها ثمرتها • وهذه العلوم كأنها متضمنة في تلك الغريزة بالخلقة ولا تظهر الى الوجود الا اذا جرى سببٌ يخرجها حتى كأن هذه العلوم ليست بشيءٍ واردٍ عليها من خارج وكأنها كانت مستكنّةً فيها فظهرت • ومثاله الماء في الارض فانه يظهر بالحفر ويجتمع ويتميز بالحس لا بأن يُساق اليه شيء جديد • وكذلك الدهن في اللوز وماء الورد في الورد • فكلُّ آدمي خُلق مجبولاً على معرفة الاشياء على ما هي عليه • اعني انها كالمتضمنة فيه لقرب

استعداده للادراك • ثم لمّا كانت معرفة الاشياء مركوزةً
في النفوس بالخلقة انقسم الناس الى مَنْ اعرض فنسي
وهم الجهال • والى مَنْ اجال خاطره فتذكَّر وهم العلماء •
فكان هذا القسم كمن حمل شهادة فنسيها بسبب الغفلة
ثم تذكرها * وحصول هذه العلوم للانسان لها درجتان•
احداهما ان يشتمل قلبـــه على العلوم الضرورية الظاهرة
فتكون العلوم النظرية فيه غير حاصلة الا انهـــا صارت
قريبة الحصول • ويكون حاله بالاضافة الى العلوم كحال
الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة الا الدواة والقلم
والحروف المفردة دون المركبة فانه قد قارب الكتابة ولم
يبلغها • الثانية ان تحصل له العلوم المكتسبة بالتجارِب
والفكر فتكون كالمخزونة عنده فاذا شاءَ رجع اليها • وحالُه
حالُ الحاذق بالكتابة اذ يقال له كاتب وان لم يكن
مباشرًا للكتابة لقدرته عليها • وفي هذه الدرجة مراتب
لا تحصى يتفاوت العلماء فيها بقلة المعلومات وكثرتهـــا

وشرف المعلومات وخستها * واعلموا أن العقول متفاوتة بحسب خلقة الله تعالى التي خلق الناس عليها . فعقول الانبياء ليست كعقول سائر الناس وعقل ابي علي بن سينا فائق على كثير من العقول . يحكى ان الرازي قال يوماً للآمدي لِمَ حسُن اهلاك الحيوانات وذبحها للانسان . فقال له الآمدي اهلاك المفضول لمصلحة الفاضل هو عين العدل . فقال له الرازي اذاً يحسن ذبحك أنت لأبي علي بن سينا . والتفاوت حاصل في الاقسام التي يطلق عليها اسم العقل الا العلمَ بالضروريات فانه لا يحصل فيه تفاوت بين العقلاء . وكلٌّ من يدركه يدرك ادراكاً محققاً من غير شك * واما قسم علم التجارب فتفاوت الناس فيه لا ينكر . فانهم متفاوتون بكثرة اصابة الرأي وسرعة الادراك . ويكون سببه امّا تفاوتاً في الغريزة واما تفاوتاً في ممارسة الامور * واما قسم استيلاء القوة العقلية على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت

الناس فيه . ويكون سببه التفاوت في العلم المعرِّف بضرر تلك الشهوة . ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الاطعمة المضرة وقد لايقدر على ذلك مَنْ يساويه في العقل اذا لم يكن طبيباً وان كان يعتقد فيه مضرة على الجملة . ولكن لما كان علم الطبيب اتمّ كان خوفه اشدّ فيكون الخوف معيناً للعقل على قمع الشهوات المضرة * واما قسم الغريزة التي قلنا انه الاصل فالتفاوت فيه لاطريق الى جحده فانه مثل نور يشرق على الانسان ويطلع صبحه . ومبادي اشراقه عند سنّ التمييز وهو تمام الاسبوع الأول اعني سبع سنين ثم لا يزال ينمو ويزداد على التدريج الى ان يتكامل بقرب الاربعين سنة . ومثاله نور الصبح فان أوائله تخفى خفاء يشقّ ادراكه ثم يتدرج الى الزيادة الى ان يكمل بطلوع قرص الشمس . وعادة الله جارية في جميع مخلوقاته بالتدريج . وكيف ينكر تفاوت الناس في الغريزة . ولولا تفاوتها لما اختلف الناس

في فهم العلوم ولمَاَ انقسموا الى بليد لا يفهم بالتفهيم الأ بعد تعب طويل من المعلم· والى ذكي يفهم بأقل اشارة· والى كامل يدرك حقائق الاشياء دون تعليم• فانقسام الناس الى من يتنبه من نفسه ويفهم · والى من لايفهم الاَّ بتنبيه وتعليم · والى من لا ينفعه التعليم ولا يفيده التنبيه كانقسام الارض الى ما يجتمع فيه الماء ويقوى فيتفجر بنفسه عيونًا • والى ما يحتاج الى الحفر ليخرج الماء في الآبار· والى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس· وذلك لاختلاف جواهر الارض في صفاتها • فكذلك هذا الاختلاف في النفوس في غريزة العقل*والسبب الظاهر بحسب العادة التي اجراها الله باختياره وبما دل عليه الاستقراء في اختلاف الناس في عقولهم واخلاقهم وسيرهم احوالُ الشمس في الحركة•فان الناس على ثلاثة اقسام· احدها الذين يسكنون تحت خط الاستواء الى مايقرب من المواضع التي يحاذيها ممرّ رأس السرطان واسمهم

العام السودان . ولأجل ان الشمس تمرّ على رؤسهم أما مرّة او مرتين في السنة صارت ابدانهم وشعورهم سوداء . وهم اضعف الناس عقلاً واوحشهم اخلاقاً . واما الذين مساكنهم اقرب الى محاذاة ممرّ رأس السرطان فعقولهم اكمل من الذين قبلهم والسواد فيهم اقلّ وطبائعهم معتدلة واخلاقهم مؤنسة واجسامهم نظيفة . وهم اهل الهند واليمن وبعض المغاربة وكل العرب * واما القسم الثاني من اهل الارض فهم الذين مساكنهم على رأس ممر السرطان الى محاذاة بنات نعش . وهم سكان وسط هذه المعمورة وهو المسمى بأيران شهر كأهل العراق والشام وخُراسان واصبهان فهم اكمل الناس عقلاً والطفهم اذهاناً . وهم مختلفون في الكمال . ويليهم في الكمال سكان فرنسا فأنهم وسط الأقليم الخامس . ويليهم في الكمال اهل الاندلس فأن بلادهم اخذت من الاقليم الخامس والسادس * واما القسم الثالث من سكان الارض

فهم الذين مساكنهم محاذية لبنات نعش · وهم الروس
والصقالبة · فعقولهم ناقصة واخلاقهم وحشية وطبائعهم
باردة · ولكثرة بُعدهم عن حرّ الشمس صار البرد عليهم
اغلبَ والرطوبات اكثر لانه ليس هنالك ما ينشفها
وينضجها فلذلك صارت الوانهم بيضاء وشعورهم شقراء
سَبْطة وابدانُهم عظيمةً رِخوة ﴿ تكملة ﴾ قوة العقل هي
احدى القوى الأربع التي اذا اعتدلت في الانسان
يكون انساناً كاملاً · وهي قوة العقل وقوة الشجاعة وقوة
العفة وقوة العدل · فقوة العقل هي حالة للنفس بها
يدرك الصوابَ من الخطأ في جميع الاحوال · والعدل
حالة للنفس بها يسوس الغضب والشهوة ويحملها على
مقتضى العقل في الاسترسال والانقباض · والشجاعة كون
قوة الغضب منقادةً للعقل في إقدامها وأحجامها · والعفة
تؤدب قوة الشهوة بتاديب العقل والشرع · فمن اعتدال
هذه القوى الاربعة تصدر الاخلاق الجميلة كلُّها فمن

اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودةُ الذهن وثقابة الرأي واصابة الظن والتفطُّن لدقائق الامور . ومن افراطها المذموم تحصل الصفات المذمومة والاخلاق القبيحة مثل المكر والحقد والخداع والدهاء والحيلة . ومن تفريطها المذموم ايضاً تصدر الصفات المذمومة مثل البلَهِ والغباوة والغَمارة والحمق والجنون . وأَعني بالغمارة قلة التجربة في الأُمور مع سلامة التخيل . والجنون عبارة عن اختلال القوة العقلية المميزة بين الامور الحسنة والقبيحة المدركة للعواقب بأن لا يظهر اثرُها وتتعطل افعالها اما بسبب نقصانٍ خُلِق عليه واما بسبب خلْطٍ او آفةٍ والفرق بين الحمق والجنون ان الأَحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسدٌ فلا تكون له رويّة صحيحة في سلوك الطريق الموصل الى الغرض . واما المجنون فانه يَختار ما لا ينبغي ان يُختار فيكون اصل اختياره فاسداً . واما الشجاعة فيصدر عنها الكرم والنجدة والشهامة وكسر

النفس والاحتمالُ والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد الى الناس وامثالها وهي صفات محمودة · واما افراط هذه القوة وهو مذموم فيحصل منه التهوّر والصلَف والبَذَخ والتكبر والعُجب والاستشاطة·واما تفريطها وهو مذموم ايضاً فيصدر منه المهانة والمذلّة والجَزَع والخساسة وصغر النفس والانقباضُ عن تناول الحق اللازم · واما العفةفيصدر منها السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة واللطافة والمساعدة والظَرف وقلّة الطمع · واما خروجها عن الاعتدال الى الزيادة والنقصان فيحصل منه الحِرْص والشرَه والوقاحة والتبذير والتقتير والرياء والملَق والشماتة والتذلل للاغنياء واحتقار الفقراء وغيرُ ذلك · فأمّهات الفضائل هي هذه الاربعة العلم والشجاعة والعفة والعدل · فمن جمع هذه الاربعة على الكمال استحق ان يكون بين الخلق ملِكاً مطاعاً يرجع الخلق كلُّهم اليه ويقتدون به (تنبيه) من الظاهر البين عند اصحاب العقول السليمة

أَنّ النفس انما دخلت هذا العالمَ الجسمانيَّ لتكتسب العلمَ النافع والعمل الصالح . واشرفُ العلوم النافعة معرفة الله تعالى ومعرفة حكمته في افعاله وفي خلق السموات والارض وما فيها وما بينهما . وهذه المعرفة لا تدرك بحاسةٍ من الحواس وانما تدرك بالعقل فكان العقل لهذا اشرفَ ومدركاته اشرفَ . ولما كان البدن مركَباً للنفس وآلةً لتحصيل الأعمال الصالحة خلق الله للأنسان الحواسَّ الظاهرة والباطنة واكرمه بالعقل الذي هو اشرفُ من الكل . فخلق له حاسة اللمس حتى اذا مسَّته نارٌ محرقة او سيف جارح احسَّ بذلك وهرب . وهذا اول حس يخلق للحيوان . فلو لم يُحِسَّ اصلاً لم يكن حيواناً . وأقلُّ درجات الاحساس ان يحس بما يلاصقه ويماسُّه فأنَّ الأحساس بما يبعُد منه احساسٌ أتمّ وهذا موجود في كل حيوان . ولو لم يُخلق للأنسان الا هذا الحسُّ لكان ناقصاً لا يقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنه بل

ما يماسّ بدنه يُحِسُّ به فيجتذبه الى نفسه فقط · فافتقر
الى حسّ يدرك ما بعُد عنه · فخلق له الشمّ الاّ أنّه
يدرك به الرائحة ولايدري من أيّ جهة جاءت فيحتاج
الى ان يطوف كثيرًا من الجوانب وقد يعثر على الغذاء
الذي شم رائحته وقد لا يعثر فيكون ناقصاً لو لم يخلق له
الاّ ذاك · فخلق له البصر ليدرك به ما بعُد عنه ويدرك
جهتَه فيقصد تلك الجهة بعينها الاّ انه لو لم يخلق له الاّ
هذا لكان ناقصاً اذ لايدرك ما وراءَ الجُدْران والحُجُب
فخلق له السمع حتى يدرك به الاصوات من وراء
الجدران والحجب عند جريان الحركات لانه لا يبصر
الاشياء حاضرًا · وكل هذا ما كان نافعاً له لو لم يكن
له حس الذوق اذ يصل الغذاء اليه فلا يدرك انه موافق
له او مخالف فيأكله فيهلك كالشجرة تصيب في اصلها
كلَّ مائع ولا ذوقَ لها فتجذبه وربما يكون ذلك سببَ
هلاكها ويبسها · وكل هذا لا يكفيه لو لم يخلق في

مقدمة دماغه ادراك آخر يسمى حساً مشتركاً تتأدّى
اليه هذه المحسوساتُ وتجتمع فيه فأنه اذا اكل شيئاً
اصفر مثلاً فوجده مرًّا غير موافق له فتركه فاذا رآه
مرةً اخرى لا يعرف أنه مُضِرٌ مُرٌّ ما لم يذقه ثانياً لولا
الحسّ المشترك لأن العين تُبصِر الصفرة ولا تدرك
المرارة والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بدّ
من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً حتى اذا رأى
الصفرة حكم بانه مرٌّ فيمتنع عن تناوله ثانياً . وهذا كله
تشاركه فيه الحيوانات اذ للشاة هذه الحواس فلو لم يكن
له الاّ هذا لكان ناقصاً لأنّ هذه الحواسّ انما هي للحاضر
فاما الغائب وادراكُ العواقب فلا . ولما كان المقصود
الاعظم من خلق الانسان هو معرفة خالقه وعبادته
(والعبادة لا تكون لمن لا يفرّق) اكرم الله الانسان
وميّزه بصفة أخرى أشرفَ من الكل وهي العقل . فبه
يعرف الانسان خالقه ويدرك المنافع والمضارّ في الحال

والمآل اذ أنفع الحواس وابعدها مدركاً العين الباصرة والعقل اشرف منها لأنّ البصر لايدرك نفسه ولايدرك ادراكه ولا يدرك آلته . أمّا أنّه لا يدرك نفسَه ولا وادراكه فلأن القوة الباصرة وادراكَها ليسا من الأمور المبصَرة بالعين الباصرة . وأمّا أنَّه لا يدرك آلته فلأنها هي العين والقوة الباصرة في العين لا تدرك العين . واما العقل فانه يدرك نفسه ويدرك ادراكه ويدرك آلته في الأدراك وهي القلب والدماغ . وأيضاً البصر لايدرك الكليات والعقلُ يدركها ومُدرِكُ الكلّيات اشرفُ من مدرك الجزئيات . أمّا أنّ البصر لا يدرك الكليات فلأنّ البصر لو ادرك كلَّ ما في الوجود فهو ما أدرك الكل لان الكل عبارة عن كل ما يمكن دخولُه في الوجود في الماضي والحال والاستقبال . وأمّا أنّ العقل يدرك الكليات فلأنا نعرف ان الأشخاص الانسانية مشتركة في الانسانية ومتمايزة بخصوصياتها وما به المشاركةُ غير

ما به المايزةُ فالانسانية من حيث هي انسانية مغايرةٌ لهذه التشخصات . وأمّا أنّ ادراك الكليات اشرفُ فلأن ادراك الكليات ممتنعُ التغير وادراك الجزئيات واجب التغير. ولأن ادراك الكلي يتضمن ادراك الجزئيات الواقعة تحته لان ما ثبت للماهيّة يثبت لجميع افرادها . وايضاً الادراكُ الحسّيُّ غيرُ منتج لأن من احس بشيء لا يكون ذلك الاحساس سبباً لحصول احساس آخر بل لو استعمل آلة الحس مرة لأحس به مرة اخرى وذلك لا يكون انتاج احساس لأحساس آخر . واما ان الادراك العقلي ينتج فلأنا اذا عقلنا اموراً ثم ركّبناها في عقلنا توسلنا بتركيبها الى اكتساب علوم أُخر . وايضاً الادراك الحسيُّ لا يسع الامور الكثيرة والعقل يتسع لها . أما أنّ الحسّ لا يتسع لها فلأن البصر اذا توالى عليه الوان كثيرة التبست عليه فادرك لوناً كانه حاصل من اختلاط هذه الالوان . والسمع اذا توالت

عليه اصوات كثيرة التبست عليه ولم يحصل التميزُ ·
والعقل يتسع لها · ولأن كل من كان تحصيله للعلوم اكثرَ
كانت قدرته على كسب الجديد اسهل لانه مهما حصلت
معرفة اخرى وازدوجت مع معرفة اخرى حصل من
ذلك نتاجٌ آخر · وهكذا يتمادى الإنتاج ويتمادى العلوم ·
لكن هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي الى طريق
التفكر · وانما مُنع اكثر الناس من زيادة العلوم لفقدهم
رأس المال وهي المعارف التي تستثمر العلوم كالذي لا
رأسَ مالٍ معه فانه لا يقدر على الربح وقد يملك رأس
المال ولكن لايحْسِن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً فكذلك
قد يكون مع الانسان ما هو رأس مال العلوم ولكن
لايُحسن استعمالها وتأليفها وأيقاع الازدواج المفضي الى
النِتاج · وايضاً البصر لا يدرك الشيءَ المرئيَّ مع غاية
القرب ولا مع غاية البُعد · والعقل عنده القرب والبعد
سواء · فانه يدرك ما فوق السموات وما تحت الارض

ويدرك ذاتَ الله تعالى مع كونه مقدّساً عن القرب والبعد والجهة . وايضاً الحس قد يقع في ادراكه الغلط كثيرًا فانه يدرك الصغير كبيرًا كالنار البعيدة في الظلمة وكالعنبة في الماء تُرى كالاجّاصة وكالنقطة من النار اذا كانت على رأس عود وحركتَه باستقامة فأنه يُرى خطّاً ممدوداً من نار واذا حركتَه على دائرة بسرعة يرى دائرة من نار ولا وجود لها اصلاً . ويرى المعدوم موجوداً كالسَّراب في الصحراء فانه يرى ماء . ويرى المتحرك ساكناً كالظل يراه ساكنًا وهو متحرك . ويرى الثلج ابيض ولا بياض فيه اصلاً فانه مركب من اجزاء شفّافة لا لون لها وهي الاجزاء المائيّة الرشّية . فلولا العقل لكان معتقد صحةِ ما ادركه حسُّه مخطئاً خطأً فاحشاً ولهذا قال افلاطون وارسطو وبطليموس وجالينوس الحسيات غيرُ يقينية بمعنى ان جزم العقل بالحسيات ليس بمجرد الحس بل لا بُدّ مع الاحساس من امور تنضمّ

الى الحس لا نعلم ما هي وحينئذٍ يجزم العقل بما جزم به من المحسوسات * وهذه القوة العقلية باعتبار ادراكها للكليات والحكمِ بينهما بالنسبة السلبية والايجابية تسمى العقلَ النظريَّ . وباعتبار استنباطها للصناعات الفكرية مما ينبغي ان يفعل او يترك تسمى العقلَ العملي . وقد اعتنى علماء افرنسا ومن حذا حذوهم باستعمال العقل العملي وتصريفه فاستخرجوا الصنائع العجيبة والفوائد الغريبة فاقوا بها المتقدمين واعجزوا المتأخرين . رقُوا بها أعلى المراقي . وحصل لهم بها الذكر الباقي . فلو استعملوا مع هذا العقلَ النظري في معرفة الله وصفاته وفي معرفة حكمته في خلق السموات والارض وما يلزم للاله من الكمال وما يتقدس عنه من النقص وما يمكن في حقّه ان يفعله وأن لا يفعله لكانوا حازوا المرتبة التي لا تدرك والمزية التي لا تُشرَك . ولكنهم اهملوا استعمال هذه القوة النظرية حتى انهم لا يُسمَع منهم لها ذاكر ولا يعثر عليها في كتبهم

ناظر· حتى لقد حكي عن بعض علماء الوقت الآن انه
قال ان الضوء يمشي من الجسم المضيء الى ما يقابله من
الاجسام كذا وكذا مترًا في كذا وكذا ثانية أو دقيقة وتلقّى
العامة منه هذا القول بالقبول · فلو استعمل هذا العالم
قوته النظرية في حقيقة هذا الضوء لم يحكم بانتقاله ·
لأنّ الضوء لا يخلو اما ان يكون جسماً او عرضاً ولا
ثالث لهما · فلو كان الضوء عرضاً يمشي من الجسم المضيء
الى ما يقابله من الاجسام كان لا ينتقل الاَّ بانتقال
الجسم الذي قام به ذلك العرض باتفاق العقلاء اذ
حقيقة العرض هو ما لا يقوم بنفسه · ولو كان الضوء
جسماً كان لا يداخل الاجسام · ولو دخل الضوء الى
بيت من طاق فسدّ انسان الطاقَ دَفعةً واحدة كان
يلزم ان تبقى الاجسام المضيئة في البيت على تقدير أَنّ
الضوء جسمٌ وهو غير واقع بالمشاهدة · وانما حقيقة الضوء
عرض يحدث في ظاهر الجسم الكثيف من مقابلة الجسم

المضيء له اذا كان بينهما جسمٌ شفّاف . وانما يحدث ذلك الضوء من السبب الذي يحدث منه ضوء الجسم المضيء كالشمس والسراج . فالذي يخلق الضوء في الجسم المضيء يخلق الضوء في الجسم المقابل له . فالضوء عرض يُحلّ في الجسم الكثيف ولا يحلّ في الهواء كما توهمه قوم بدليل أَنّ القاعد في غار طويل في الجبل لا يدري بالليل ولا بالنهار خارجَ الغار والهواء يدخل الغار بلا شك ﴿ خاتمة ﴾ العلوم تنقسم الى ما هو محمود والى ما هو مذموم . فالعلم المحمود ما يرتبط به مصالح الدين والدنيا كالطب والحساب وكلّ علم لا يستغنى عنه في قوام امر الدين والدنيا كأصول الصنائع من الفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة بل الحجامة من العلوم اللازمة فلو خلا البلد عن الحجّام تسارع الهلاك الى اهل ذلك البلد . فأنّ الذي انزل الداءَ انزل الدواءَ وأَرشد الى استعماله وأَعدَّ الاسبابَ لتعاطيه فيقبح التعرض

للهلاك * ومن المعلوم ان الانسان مدنيٌّ بالطبع فهو محتاج الى التمدن والاجتماع مع ابناء جنسه · ومهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا تولّدت بينهم خصومات · اذ تحدث رياسة الزوج على الزوجة ورياسة الأَبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج الى مَنْ يقوم عليه · ومهما حصلت الرياسة على عاقل افضى الى الخصومة بخلاف الرياسة على البهائم اذ ليست لها قوة المخاصمة ولو ظلمتْ · اما المرأَة فتنازع الزوجَ واما الولد فينازع الأَبوين هذا في المنزل · واما اهل البلد فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها ولو تُركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا · وكذلك الرعاة وارباب الفلاحة يتنازعون على الارض · ثم قد يعجِز بعضُ الناس عن الصناعة بعمى او مرض او هرم · ولو تُرِك ضائعاً لهلك · ولو وُكل تفقده الى الجميع لفرّطوا · ولو خُصّ واحدٌ من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له · فحدث من هذه الامور الحاصلة

بالاجتماع علومٌ • منها علم المساحة التي بها تعرف مقادير الارض لتمكن القسمة بينهم بالعدل . ومنها علم الجندية لحراسة البلد بالسيف • ومنها صناعة الحكم لفصل الخصومات . ومنها علم القانون الذي ينبغي ان يضبط به الخلق و يلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع • وهذه امورٌ مخصوصة لا يقوم بها الا مخصوصون بالعلم والتمييز . واذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعةٍ اخرى و يحتاجون الى المعاش و يحتاج اهل البلد اليهم اذ لو اشتغل اهل البلد بالحرب مع الاعداء مثلاً تعطلت الصناعات . ولو اشتغل اهل الحرب والسلاح بالصناعات وطلبِ القوت تعطلت البلاد عن الحراس وهلكت الناس . فلزم ان يُدهم اهل البلد بأموالهم ليحرسوهم فتحدث الحاجة الى الخراج . ثم يتولد بسبب الحاجة الى الخراج علوم أُخر . اذ يحتاج الى مَنْ يوظف الخراجَ بالعدل على ارباب الاموال وهم العُمَّال . والى مَنْ يستوفي منهم

بالرفق وهم الجُباة · والى من يجمع عنده الى وقت التفرقة وهم الخُزّان · والى من يفرّق بالعدل وهو العارض للعساكر · وهذه الاعمال لو تولاّها اناس كثيرون لايجمعهم انسان واحد لانخرم النظام · فحدثت الحاجة الى مِلك يدبّرهم بالعلوم السياسية التي تلزم معرفتها كلَّ ملك · فيكون الخلق كلهم بالنسبة الى العلوم المحتاج اليها ثلاثةَ طوائف · الفلاّحون والمحترفون · والثانية الجند الحماة بالسيوف · والثالثة المترددون بين الطائفتين بالأخذ والعطاء · ثم حدث بسبب البيع والشراء الحاجة الى التقدير فأن من يريد ان يشتري طعاماً بثوب فمن اين يدري المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو · فلا بدّ من حاكم عَدْل يتوسط بين المتبايعيْن يعدل احدهما بالآخر · فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال ويحتاج الى ما يطول بقاؤه · وأبقى الاموال المعادن · فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس · فحدثت

الحاجة الى دار الضرب والنقش والتقدير وعلم المعادن واستخراجها وتصفيتها · فهذه هي علوم الخلق وهي معايشهم وكلّها محمودة · ثم ان هذه العلوم لا تمكن مباشرتها الاَّ بالتعلم والتعب في الابتداء · وفي الناس مَنْ يغفل عن ذلك في الصِبا فلا يشتغل به او يمنعه مانع فيبقى جاهلاً وعاجزًا عن العلوم التي يتكسب بها فيحتاج الى ان يأكل مما سعى فيه غيره فيحدث لذلك حرفتان خسيستان مذمومتان وهما اللصوصية والكُدْية · ثم ان الناس يُحرِزون اموالهم عن اللصوص والمُكْدِين فاحتاجوا الى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير · اما اللصوص فمنهم مَنْ يطلب اعوانًا وتكون له شوكة فيجتمعون ويقطعون الطريق كالأعراب والاكراد ومن فعل فعلهم · واما الضعفاء فيستعملون الحيَل اما بنقب الدور والأسوار او الصعود عليها وقت غفلة الناس او يكون طرّارًا · واما المكدي فانه اذا طلب ما سعى فيه غيره قيل له اعمل وكل ومالك

وللبطالة . فاحتاج المكدون الى حيلة في استخراج اموال الناس . فمنهم من يظهر العمى والفلج والمرض وهو خال عن ذلك ليكون ذلك سبباً للرحمة عليه . ومنهم من يظهر اقوالاً وافعالاً يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها فيسخون لهم بالمال وذلك يكون بالتمسخر والمحاكاة والأفعال المضحكة وقد يكون بالاشعار الغريبة مع حسن الصوت والشعرُ الموزون له تأثير في النفس . ويدخل في هذا الوعاظ الذين يصعدون المنابر اذا لم يكن وراء كلامهم علم نافع وليس مرادهم الاَّ اكتسابَ الدينار والدرهم * واما العلم المذموم فاعلموا وفقكم الله ان العلم لا يُذمُّ لعينه من حيث انه علم . اذ لا شيءَ من العلوم من حيث انه علم بضار ولا شيءَ من الجهل من حيث انه جهل بنافع لأن في كل علم منفعةً اما في المعاد او في المعاش او الكمال الانساني اذ كل علم يفيد النظر فيه عقلاً مزيداً . وجميع العلوم الصناعية والنظرية

تفيد عقلاً • وانما يُذَمّ بعض العلوم لأحد اسباب • إمّا لكونه مؤدياً الى ضرر اما بصاحبه او بغيره كعلم السحر والطلسمات • وهو حق صحيح شهدت بصحته المشاهدة • وهو علم يستفاد من العلم بخواص الجواهر و بامور حسابية في مطالع النجوم فيحدث من مجموع ذلك بحكم اجراء الله العادةَ احوالٌ غريبة وتأثيرات عجيبة • اعني ان تأثير النفوس البشرية في عالم العناصر ان كان بغير مِعين من الامور السماوية فهو السحر • وان كان بمعين من الأمور السماوية فهو الطلسمات • ومعرفة هذه الاسباب من حيث انه معرفة ليست مذمومة ولكنها ليست تصلح الاّ للإضرار بالخلق • وكانت هذه العلوم في اهل بابِلَ من السريانيين والكلدانيين وفي اهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التآليف الكثيرة • وهذا العلم مهجور في الملة الاسلامية • ولم يترجم لنا من كتبهم الاّ القليل • الى ان ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه

الملة فتصفح كتب هذا العلم واستخرج الصناعة ووضع فيها التآليف واكثر الكلام فيها وفي صنعة الكيمياء لانها من توابعها لأن احالة الاجسام النوعية من صورة الى اخرى انما تكون بالقوى النفسانية لا بالصناعة العملية ٠ وإمَّا لكون المتعلم يقصد بالعلم فوق غايته كمن يقصد بعلم النجم الاطلاعَ على المغيبات والحوادثِ الآتية وغايةُ علم النجم الاهتداء في ظلمات البر والبحر وتسييرُ الشمس والقمر في المنازل والبروج للاستعانة على الزراعة ونحوها ٠ واقل احوال من يقصد بعلم النجم الاطلاعَ على المغيبات انه خوض في فضول لا ينفع ٠ فان المقدور واقع والاحتراز منه غير ممكن ٠ واحكام النجوم ظنٌ خالصٌ والحكم بالظن حكمٌ بجهل ٠ وما يتفق من اصابة منجم على الندور انما هو اتفاقيٌّ ٠ لأن المنجم يطَّلع على بعض الاسباب ولا يحصل المسبَّبُ عقبها الاَّ بعد شروط كثيرة لا يطَّلع المنجم عليها ٠ فان قدَّر الله بقيةَ الاسباب وقعت الاصابة ٠

وان لم يقدر اخطأ • ويكون ذلك كظن الانسان ان السماءَ تمطر اليوم اذا رأى السحاب يجتمع وينبعث من الجبال • وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب السحاب • وربما يكون المطر • فالمنجم باستدلاله بالنجم على الحوادث كاستدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض • فتارة يكون وتارة لا يكون • مع ان الطب اكثر اسبابه مما يطّلع الاطباء عليها • وإمّا لكون العلم عزيزَ المنازل رفيعَ المرْقَى ويتعاطاه مَنْ ليس من أهله فيتضرر

الباب الثاني

في اثبات العلم الشرعي

اعلموا وفّقكم الله أنَّ العقل وان بلغ من الشرف والاطلاع على حقائق الاشياء ما بلغ فثَمَّ علوم لا يصل اليها ولا يهتدي الى الاطلاع عليها الا بتصديق الانبياء واتباعهم والانقياد اليهم • بمعنى أن علوم الانبياء زائدةٌ على علم

العقل الذي قلنا أنه متضمَّن في غريزة العقل يجده مهما
صرف عقله في اكتسابه . والعقل مع عزله عن علوم
الانبياء الا باتباعهم مستعدّ لقبول علومهم والانقياد اليها
والاستحسان لها مهما عرفوه اياها * وبيانُ أَنَّ ثمَّ علوماً
زائدة وراءَ علم العقل أنَّ الله تعالى خلق الانسان خالياً
لاخبرَ لهُ عن مخلوقات الله . وهي كثيرة لا يحيط بها الاَّ
خالقها . فيخلق له حاسة اللمس فيدرك بها الملموسات
وهي اجناس كثيرة ولا تُدرَك الاصوات ولا الألوان
فهي كالمعدومة في حقه . ثم يخلق له البصر فيدرك به
بعض الموجودات الى ان يتجاوز المحسوسات . فيخلق فيه
التمييز وهو طور آخر فيدرك به اموراً وراءَ المحسوسات
لايوجد شيءٌ منها في المحسوسات . ثم يترقى الى طور آخر
وهو طور العقل فيدرك به اموراً لا توجد في الاطوار
التي قبله . ووراءَ العقل طورٌ آخرُ وأمورٌ أُخر العقلُ
معزولٌ عنها ولا يصل اليها بنفسه بل بغيره كما عُزلت

الحواسُّ عن مدرَكات العقل * فالعلوم التي تحلُّ في العقل تنقسم الى عقلية وشرعية . اما العقلية فنعني بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد وسماع . وهي تنقسم الى ضرورية كعلم الانسان بأَن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في آنٍ واحد وبأن الشيء لا يكون موجوداً معدوماً . وهذه علومٌ يجد الانسان نفسه عارفاً بها . ولا يدري من اين حصل له ذلك اعني لا يدري سبباً قريباً . والاّ فليس يخفى أنّ الله هو الذي خلقه وهداه اليه . والى علوم مكتسبة وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال والنظر * واما العلوم الشرعية فهي المأخوذة عن الانبياء . وذلك يحصل بالتعلم لكتب الله المنزلة مثل التوراة والانجيل والزبور والفرقان وفهم معانيها بعد السماع . وبها يكمل العقل ويسلم من الامراض . فالعلوم العقلية غير كافية في السلامة وان كانت محتاجاً اليها . كما ان العقل غيرُ كافٍ في استدامة صحة البدن بل يحتاج

الانسان الى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الاطباء . اذ مجرّد العقل لا يصل اليه . ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه الاّ بالعقل فلا غنى بالعقل عن العلوم الشرعية . ولا غنى بها عن العقل . فالذي يدعو الناس الى التقليد المحض مع عزل العقل جاهل . والمكتفي بمجرد العقل عن العلوم الشرعية مغرور * فايّاكم ان تكونوا من احد الفريقين وكونوا جامعين بينهما . فأن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالادوية . والشخص المريض يتضرر بالغذاء اذا فاته الدواء . وقلوب الخلق كلها مرضى ولا علاج لها الاّ بالأدوية التي ركّبها الانبياء . وهي وظائف العبادات . فمن اكتفى بالعلوم العقلية تضرّر بها كما يتضرر المريض بالغذاء . كما وقع لبعض الناس فأنهم قالوا الانسان اذا حصل له المعقول وأَثبت للعالم صانعاً وصل الى الكمال المطلق فتكون سعادته على قدر علمه وشقاوته على قدر جهله . وعقله

هو الذي يوصله الى هــذه السعادة * واياكم ان تظنوا ان العلوم الشرعية مناقضةٌ ومنافرةٌ للعلوم العقلية · بل كلُّ شيءٍ جآءَ عن الانبياء مما شرعوه للناس لا يخالف العقول السليمة · نعم يكون في شرائع الانبيآء ما تستبعده العقول لقصورها عنه · فاذا عرفتْ طريقه عرفتْ أنه الحقُّ الذي لا ينبغي العدولُ عنه · مثالهُ في شرع الاسلام الذهب والفضة فان الشرع يمنع من اختزانهما من غير اعطاء بعضها للفقراء والمساكين · ويمنع من اتخاذ الأواني للاكل والشرب منها · ويمنع من بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة بزيادة · فاذا قيل لانسان أعطِ بعضها للفقراء والاَّ تُحرقْ بالنار يقول انا تعبت وجمعتُها فكيف أُعطيها مَنْ كان نائمًا مستريحًا هذا خارج عن العقل · واذا قيل له لا تاكل لا تشرب في اواني الذهب والفضة والاَّ تحرَق بالنار يقول انا اتصرف في مُلكي ولا ينازعني فيه احدٌ فكيف أُعاقَب على التصرف

في ملكي هذا خارج عن العقل · واذا قيل له لا تَبِع الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة بزيادة والاَّ تُحرق بالنار يقول انا ابيع واشتري برضىً مني ومن الذي اتعامل معه ولولا البيع والشراء لخربت الدنيا وتعطلت المنافع هذا شيءٌ خارج عن العقل · وكلامه هذا صحيح فأن العقل غير مدرك للعقاب على هذه الامور · فيحتاج العقل الى التعريف · فيقال له الحكمة التي خلق الله الذهب والفضة لأجلها هي أنّ قِوامَ الدنيا بهما وهما حجران لا منفعة في أعيانهما اذ لا يرُدّان حرًّا ولا بردًا ولا يُغَذيان جسماً · والخلق كلهم محتاج اليهما من حيث أنّ كل انسان محتاج الى اشياءَ كثيرةٍ في مطعمه وملبسه · وقد لا يملك ما يحتاج اليه ويملك ما يستغني عنه كمن يملك القمح مثلاً وهو محتاج الى فرس · والذي يملك الفرس قد يستغني عنه ويحتاج الى البُر فلا بدّ بينهما من معاوضة ولابُدَّ من تقدير العوض

اذ لا يعطى صاحب الفرس فرسَه بكل مقدار من البُر ولا مناسبة بين البُر والفرس حتى يقال يُعْطَى منه مثلَه في الوزن او الصورة فلا يدري ان الفرس كم يسوى بالبُر فتتعذر المعاملات في هذا المثال واشباهه . فاحتاج الناس الى متوسط يحكم بينهم بالعدل فخلق الله الذهب والفضة حاكمين بين الناس في جميع المعاملات . فيقال هذا الفرس يسوى مائة دينار وهذا القدر من البُر يسوى مثلَه . وانما كان التعديل بالذهب والفضة لأنه لا غرض في أعيانهما وانما خلقهما الله لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بالعدل . ونسبتهما الى جميع الاموال نسبة واحدة . فمن ملكهما كأنه ملَكَ كلَّ شيء . ومن ملَكَ فرساً مثلاً فانه لم يملك الاَّ ذلك الفرس . فلو احتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الفرس لأنَّ غرضه في ثوب مثلاً فاحتيج الى ما هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه

كلّ الاشياء · والشيء انما يستوي نسبته الى الاشياء المختلفات اذا لم تكن له صورة خاصة كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون· فكذلك الذهب والفضة لا غرض فيهما وهما وسيلتان الى كل غرض· فكلُّ مَنْ عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكمة الالهية فأنه يعاقب بالنار ان لم يقع السماح · فمن كَنَزهما من غير ان يعطي منهما قدرا مخصوصاً للفقراء فقد أبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس الحاكم الذي يفصل بين الناس ويقطع الخصومات في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه· لأنه اذا كَنَزهما فقد ضيّع الحكم ·وما خلق الله الذهب والفضة لزيدٍ خاصةً ولا لعمرو خاصةً وانما خلقهما لتتداولهما الأَيدي ليكونا حاكمين بين الناس · ولا شكّ ان العقل اذا عرف هذا الذي قلناه حكَمَ بأنّ ادّخار الذهب والفضة عن الناس ظلمٌ واستحسنَ العقوبة عليه لأَن الله تعالى لم يخلق احدا للضياع · وانما جعل عيش الفقراء على الاغنياء · ولكن

الاغنياء ظلموا الفقراء ومنعوهم حقهم الذي جعله الله لهم * وكذا نقول مَنْ اتخذ من الذهب والفضة آنية للاكل والشرب فهو ظالم وكان أشرَّ من الذي كنزهما وادّخرهما لأن مثالَ هذا مثالُ مَنْ جعل حاكم البلد حجّاماً او درّازاً او جزّاراً من الاعمال التي يقوم بها اخساء الناس. لأن النحاس والرصاص والطين تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المأكولات والمشروبات عن التبديد. وفائدة الأواني حفظ المائعات . ولا يكفي الطين والحديد والرصاص والنحاس في المقصود الذي يراد من الذهب والفضة. ولا شك ان العقل اذا عرف هذا لم يتوقف في استحسانه واستحسان العقوبة عليه * وكذا نقول مَنْ باع الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة بزيادة فقد جعلهما مقصودين في ذاتهما للتجارة وذلك خلافُ الحكمة الالهية. لأن مَنْ عنده ثوبٌ مثلاً وليس عنده ذهبٌ ولا فضة وهو محتاج الى طعام فقد لا يقدر

ان يشتري الطعامَ بالثوب فهو معذورٌ في بيعه بالذهب
او الفضة فيتوصل الى مقصوده فأنهما وسيلتان الى الغير
لا غرض في أعيانهما • فأما مَنْ عنده ذهب فاراد بيعه
بذهب او فضةٌ فاراد بيعها بفضة فأنه يُمنع من ذلك •
لأنه يُبقي الذهب والفضة متقيدين محبوسين عنده
ويكون بمنزلة الذي كَنَزَ • وتقييد الحاكم او الرسول
الموصل الحاجاتِ الى الغير ظلمٌ • فلا معنى لبيع الذهب
بالذهب والفضة بالفضة الاّ اتخاذُهما مقصودين للادّخار •
فأذا عرف العقل هذا حسّنه وحسّن العقوبة عليه • وانما
كان بيع الذهب بالفضة والعكسُ لا عقوبة عليه • لأنّ
احدهما يخالف الآخر في التوصل به الى قضاء الحاجات
أذ يسهل التوصل بالفضة من جهة كثرتها فتتفرق في
الحاجات • والمنعُ تشويش للمقصود به وهو تسهيل التوصل
به الى غيره • وكذا نقول لمن يبيع الفضة او الذهب
بزيادة الى أجلٍ كمن يبيع عشرة بعشرين الى سنة أنّ

مَبْنَى الاجتماع وأساسَ الأَديان هو استعمال ما يوجب المحبة والألفة فيحصل التناصر والتعاون · والانسان اذا كان محتاجاً ووجد مَنْ يُسلِفُه فلا شك انه يتقلد منَّةَ مَنْ أَسلفه ويعتقد محبته ويرى أنّ نصرته واعانته امرٌ لازم له · ففي منع بيع الذهب والفضة بزيادة الى اجل ابقاءٌ لمنفعة السلف التي هي من أَجلّ المقاصد • وهذا الذي ذكرناه جزئية من كليات تبيّن أن الشرع لايخالف العقل • وقس عليه جميع ما أمرتْ به الانبياء ونهت عنه • فجميع اقوال الانبياء لا تخالف العقول ولكن فيها ما لا يهتدي العقل اليه أولاً · فاذا هُدِي اليه عرفه وأَذعن له • وكما يطّلع الطبيب الحاذق على اسرار في المعالجات يستبعدها من لا يعرفها فكذلك الانبياء · فلا يصل العقل الى علومهم الاّ بتعريفهم · ويلزم العاقلَ التسليمُ لهم بعد النظر في صدقهم · فكم من شخص يصيبه مرض في اصبعه فيقتضي عقله ان يطليه بالدّواء حتى ينبهه

الطبيب الحاذق أَنّ علاجه ان يطلى الكتف من الجانب الآخر من البدن· فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد · فاذا عرّفه الطبيب كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن اذعن

فصلٌ

في اثبات النبوّة واحتياج كافة العقلاء الى علوم الانبياء

اعلموا وفقكم الله أَن النبوّة هي عبارة عن طور تنفتح فيه عين اخرى زائدة على طور العقل ونظرهِ ينظر بها النبيُّ ما يكون في المستقبل من امورِ العقلُ معزولٌ عن ادراكها كعزل قوة التميز عن ادراك المعقولات وكعزل الحواس عن مدركات التميز· وانظروا الى ذوق الشعر كيف يختص بـه قوم من الناس وهو نوع احساس وادراك ويحرَم منه بعضهم · وانظروا كيف عظمت قوة هذا الذوق في طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى والأغاني

والأوتار ونحوها التي منها الحازن والمطرب والمبكي والمضحك والقاتل والموجب للغَشْي . وانما يقوى على استنباط هذه الانواع مَنْ قوي له اصل الذوق . وأَما العاطل عن خاصية هذا الذوق فيشاركه في سماع الصوت وتضعف فيه هذه الآثار . وهو يتعجب من صاحب الوجد والغشي ولو اجتمع العقلاء كلهم من ارباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق لم يقدروا * فلا تجعلوا الكمال وقفاً على العقل فوراء كمال العقل كمال آخر أعلى من كمال العقل . وكما أنّ المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأنكرها واستبعدها فكذلك بعض العقلاء استبعدوا مدركات النبوّة . ولا مستند لاستبعادها الاّ انها طور لم تبلغه العقول . وقد خلق الله مثالاً للنبوة من حيث انها ادراك زائد على الادراك المتعارف وهو النوم . اذ النائم يدرك اموراً تكون في المستقبل اما صريحاً واما باشارة يعرفها المعبّرون للرؤيا . وهذا لو لم يجربه الانسان

من نفسه وقيل له اِنّ من الناس من يسقط كالميت ويزول احساسه وسمعه وبصره فيدرك المغيبات لأَنكره وقال القوى الحسيّة أسباب الأدراك والأنسان لا يدرك المغيبات مع وجود حواسه فكيف يدرك مع غيبتها • والوجود والمشاهدة قاضيان بصحة النوم • وقد شاهدنا صحة كثير من المنامات وبلغنا عن الثقات بالنقل الصحيح أنّ الفردوسي الشاعر لما صنّف كتابه المسمى بشاهنامه على اسم السلطان محمود بن سبُكْتِكين وانه ما قضى حقه كما يلزم وما راعاه كما يليق بذلك الكتاب ضاق قلب الفردوسي فرأى رستم في المنام فقال له انك مدحتني في هذا الكتاب كثيراً وانا في جملة الأموات فلا اقدر على قضاء حقك ولكن اذهب الى الموضع الفلاني واحفر فانك تجد فيه دفيناً كنتُ دفنته فخذه • فذهب فوجده وأخذه • فكان الفردوسي يقول ان رستم بعد موته كان اكثر كرماً من محمود حال حياته *

والشك في النبوة اما ان يكون في امكانها او وجودها
او حصولها لشخص معيّن. ودليل امكانها ووجودها وجودُ
معارفَ في العالمَ لا يمكن ان تدرك بالعقل كعلم الطب
وعلم النجم . فان مَنْ بحث في علميهما عِلم يقيناً ان بعضها
لا يدرك الاّ من جهة الله تعالى ولا تكون التجربة طريقاً
اليها . فان من الاحكام النجومية ما لا يقع الاّ في كل
الف سنة مرةً فكيف يحصل ذلك العلم بالتجربة. وكذلك
خواصّ الأدوية . فظهر بهذا ان من الممكن وجودَ
طريق ادراك هذه الامور التي لا يدركها العقل . وهو
المراد بالنبوة . وثَمَّ امور تسمى خواصَّ لا يدور العقل
حولها اصلاً . فان وزن دانِق من الافيون سمٌّ قاتل .
لانه يجمد الدم في العروق لقوة برودته . والعالم بالطبيعيات
يقول انه يبرّد لانه من المبرِّدات التي يغلب فيها عنصر
الماء والتراب . ومعلوم ان ارطالاً من الماء والتراب
لا يبلغ تبريدها الى هذا الحد . ولو أُخبر طبيب بهذا

ولم يجرّبه امثال هذا كذب لان الماء والتراب لو كانا وحدهما ما وصلا الى هذا الحد · والافيون فيه هوائية ونارية فاذا جرّبه التزم ان يقول ان في الأفيون خاصية في التبريد خارجةً عن قياس المعقول * ولو قيل لأنسان هل يمكن ان يكون في الدنيا شيء هو بمقدار حبة قمحٍ في بلدة فياكل تلك البلدةَ بجملتها ثم ياكل نفسه فلا يبقى شيء من البلدة وما فيها ولا يبقى هو في نفسه لقال هذا محال وهو من جملة الخرافات · وهذه حالةٌ ينكرها مَنْ لم يرَ النار · واكثر العجائب التي يخبر بها الانبياء من هذا المعنى * واذا ثبت ان الله تعالى فاعل مختار لا علةٌ موجبة وثبت ان ارسال الانبياء ممكن غير محال في حقه وجاءت الانبياء بما يصدّقهم من المعجزات الخارقة للعادة لزم تصديقهم* والدليل على ان الله تعالى فاعل مختار هو أنّ هذه الاجسام الموجودة متناهية وكل متناهٍ فهو مشكَّل ينتج ان هذه الاجسام الموجودة مشكَّلة · وهذه

الأَشكال قسمان · احدهما الأَشكال التي حصلت على سبيل الاتفاق من غير ان يحتاج حصولها الى فعل فاعل حكيم · والثاني الأَشكال التي يشهد صريح العقل بانها لم تحصل الا بقصد فاعل حكيم · اما القسم الاول فمثل الحجر المنكسر والكوز المنكسر · فانه لا بد وان يكون لتلك القطعة من الحجر والفخّار شكل مخصوص معين الاَّ ان صريح العقل شاهد بان ذلك الشكلَ المخصوصَ وقع على سبيل الاتفاق ولا يتوقف حصوله على فعل فاعل مختار · واما القسم الثاني فهو مثل الاشكال الواقعة على وَفق المصالح والمنافع مثاله الأَبريق فاننا لما نظرنا الى الأَبريق رأَينا فيه ثلاثة اشياء احدها الرأْس الواسع وثانيها البُلبُلة الضيقة وثالثها العروة · فلما تأَملنا في هذه الاحوال الثلاثة وجدناها موافقة لمصلحة الخلق · فانه لا بد من توسيع رأس الأَبريق حتى يدخل الماء فيه بالسهولة · ولا بد من ضيق بُلبُلته حتى يخرج الماء

منها بقدر الحاجة · ولا بد له من العروة حتى يقدر الانسان على ان يأخذه بيده · فلما وجدنا هذه الاوصاف الثلاثةَ في الأبريق مطابقةً للمصلحة شهد عقل كل واحد بأن فاعل هذا الابريق لا بد وان يكون قد فعله بناءً على الحكمة ورعاية المصلحة · ولو ان قائلاً قال ان هذا الابريق تكوّن بنفسه من غير قصد قاصدٍ حكيمٍ ولا فعلِ فاعلٍ بل اتفق تكوُّنه بنفسه كما اتفق تشكّل هذه القطعة بهذا الشكل الخاص من غير قصد قاصد حكيم ولا جعل جاعل لشهدت الفطرة السليمة بأن هذا القول باطل محال · ومتى ثبت القول بالفاعل المختار ثبت حدوث العالم · ومَنْ عرف هذا سهل عليه معرفة النبي · فأن مَنْ دخل بستانًا ورأى ازهارًا حادثة بعد ان لم تكن ثم رأى عنقودَ عنب قد اسودّ جميع حبّاتهِ الاّ حبةً واحدة مع تساوي نسبةِ الماء والهواء وحرّ الشمس الى جميع تلك الحبّات فانه يضطرُّ الى العلم

بان فاعله مختار. وحينئذٍ تحصل المعرفة الضرورية بصدق الرسول لان دلالة المعجزة على صدق الرسول ضرورية

﴿ تنبيه ﴾ اذا وقع لكم الشكّ في شخص معيَّن انه نبيّ ام لا فلا يحصل لكم اليقين الاَّ بمعرفة احواله امّا بالمشاهدة واما بالتسامع والتواتر . فانكم اذا عرفتم الطب والحكمة مثلاً يمكنكم ان تعرفوا الاطباء والحكماء بمشاهدة احوالهم وسماع اقوالهم وان لم تشاهدوهم . فلا تعجزون عن معرفة كون جالينوسَ طبيباً وكون افلاطونَ حكيماً معرفةً بالحقيقة لا بالتقليد للغير بأن تطالعوا كتبهما وتصانيفهما بعد معرفتكم بالطب والحكمة فيحصل لكم العلم الضروري بحالهما . فاذا فهمتم معنى النبوّة فاكثروا من مطالعة كتب الانبياء واخبارهم وكيف كانت سيَرهم واحوالهم . فاذا قال قائل ان هذا المنقول عنهم خرافات وكذب فنقول له ما بال الناس لا ينقلون نقلاً متواتراً عن غير الانبياء مثلَ ما نقلوا عن الانبياء . واكثر الامور التي نُقلت عن

الانبياء مما يدل على صدقهم متواترة يجزم العقل بانها موجودة · والتواتر مفيد للعلم · وحقيقة التواتر هو ان يخبر جماعة يبعد تواطؤهم على الكذب عادةً عن امر محسوس · فيحكم العقل بــه بمجرد خبرهم · فيحصل العلم الضروري ·ولا شك في هذا اذ لا طريق للعلم الضروري بالبلاد البعيدة مثل الصين وامريقة والاشخاص الماضية كحاتِم وعنترةَ وجالينوسَ وارسطو ألاّ بالتواتر · وجميع الانبياء انما ثبتت نبوءتهم عندنا وعند كل مَنْ لم يشاهدهم ويعاصرهم بالتواتر · لانــه نُقل الينا بالتواتر احوالُهم وسِيَرُهم وظهور الخوارق على ايديهم · فأن رددنا التواتر وما قبلناه واقتصرنا على ما نشاهده يلزمنا بطلان نبوّة جميع الانبياء · بل يلزمنا عدم التصديق بوجود البلاد التي لم نشاهدها وعدمُ الاشخاص الذين لم نشاهدهم وهو ظاهر البطلان · وان اعترفنا بصحة التواتر لزمنا الاعتراف بنبوة جميع الانبياء · والنبيُّ يدعو الناس الى عبادة الله

ولاضرر عليه لو خالفه الناس اجمعون · ومثال الرسول
مع الذين ما صدقوه ولا اجالوا خواطرهم بالنظر في صحة
قوله مثالُ رجل يقول لآخر ان وراءَك سبُعاً ضارياً
فان لم تهرب قتلك وان التفتَّ وراءَك ونظرتَ عرفت
صدقي فيقول الواقف انه لا يثبت صدقك عندي الاَّ
اذا نظرتُ والتفتُّ ورائي ولا أَلتفتُ ورائي الاَّ اذا
ثبت صدقك · وهذا كلامٌ يدل على حماقة هذا القائل
وتعرضه للمهالك · ولا ضرر فيه على هذا المخبر * فكذلك
الرسول يقول وراءَكم الموت ووراءَ الموت السباعُ الضارية
والنيران المحرقة · فان لم تحذروا منها وتعرفوا صدقي
بالنظر في احوالي ومعجزاتي هلكتم · فمن التفت ونظر
عرَف ونجا · ومن لم يلتفت ولم ينظر هلَكَ ولا ضرر
عليّ ولو هلَكَ الناس اجمعون · فالرسول يُعرِّف بوجود
السباع الضارية بعد الموت والعقل يفهم كلامه ويحكم
بامكان وقوع ما يقوله في المستقبل · والطبعُ من شأنه

الحذر من الضرر • وأساس الديانة واصولها لا خلاف فيها بين الانبياء من آدم الى محمد · فكلهم يدعون الخلق الى توحيد الاله وتعظيمه واعتقاد ان كل شيء في العالم صنعه وانه تعالى علة لوجود كل شيء ولا علة لوجوده هو سبحانه وتعالى · والى حفظ النفس والعقل والنسل والمال · فهذه الكليات الخمس لا خلاف فيها بين الانبياء · وجميع الشرائع متفقة عليها · وحاصلها يرجع الى تعظيم الاله والشفقة على مخلوقاته • وطريان النسخ على هذه الكليات الخمس محال · وانما النسخ يمكن في الشرائع الوضعية · وهي الاشياء التي يجوز ويصح ان لا تكون مشروعة · دون الاحكام العقلية كتوحيد الاله وما ذكرنا معه من الكليات · فان العقول والشرائع متوافقة على لزوم حفظها · والخلاف بين الانبياء في كيفية حفظها ووضع القوانين لدوام بقائها محفوظة * وفائدة النسخ وحكمته أمّا على تقدير كون الاحكام الشرعية معللة

بمصالح العباد واللطف بهم فيمكن ان تختلف مصالح الاوقات فتختلف الاحكام بحسبها كمعالجة الطبيب . فانه قد يأمر بشرب دواء خاص في وقت دون وقت . فربما كانت المصلحة في وقتٍ ثبوتَ الحكم لاشتماله على شيءٍ تلزم رعايته وفي وقتٍ آخر ارتفاعَه لاشتمال رفعه على مصلحة أخرى حادثة بعد زوال الاولى . وأَما على تقدير ان الاحكام الشرعية مستندة الى محض ارادة الله من غير مراعاة مصلحة فالأَمر هيّن . لأَنه تعالى هو الحاكم المطلق الفعّال لما يريد . فيمكن ان يضع حكماً ويرفع حكماً لا لعلة وغرض . فكما لا تنافي بين الامر المقتضي لوجود الحادث في وقتٍ وبين الامر المقتضي لفنائه في وقت آخر كذلك ليس بين تحليل الشيءُ في زمان وتحريمه في زمان آخر تنافٍ اصلاً . وكما ان مدة بقاء كل حادث وزمانَ فنائه معينٌ في علم الله تعالى وان كان مجهولاً لنا كذلك مدة بقاء كل حكم وزمنُ تغيُّره

كان معيناً في علم الله وان كان مجهولاً لأَهل الأَديان السابقة فالتخالف بين شرائع الانبياء في جزئيات الاحكام بسبب تفاوت الأَعصار في المصالح من حيث ان كلَّ واحد من الاحكام حقّ بالأُضافة الى اهل زمانه مُراعىً فيه مصالحُ مَنْ خوطب به • فالنسخ انما هو للأَحكام لا لنبوَّة النبيّ المنسوخة شريعته . فان النبوة صفة لا تزول عمن اتصف بها • واليهود منعوا النسخ فأَنكروا الانجيل. وذلك أنّ الانجيل النازل على المسيح وان لم يكن فيه احكام من الحلال والحرام وانما هو رموز وامثال ومواعظ. والاحكام فيه محالة على التوراة الاَّ أَنَّ فيه اشارة لنسخ بعض احكامها . وقالوا ان عيسى مأمور باتبّاع التوراة وموافقة موسى فغيَّر وبدّل وعدُّوا من التغييرات تغيرَ السبت الى الاحد ومنها اكلُ بعض ما كان حراماً في التوراة . ومنها الختان وكان لازماً في التوراة . ومنها الغسل من

الجنابة وكان لازماً في التوراة · ومنها زوال النجاسة
وكان لازماً في التوراة وغير ذلك · واحتجت اليهود بأن
موسي نبي نسخَ دينه ويلزم الاعتراف بصدقه لكونه نبياً
بالاتفاق · وذلك انه قال بالتواتر تمسكوا بالسبت
مادامت السموات والارض · والمراد بدوامه دوام اليهودية
كما هو ظاهر اللفظ · واحتجوا ايضاً بان موسى اما ان
يكون صرّح بدوام دينه او بعدم دوامه او سكت ·
والاخيران باطلان · أما تصريحه بعدم دوام دينه فانه
لو قال ذلك لتواتر عنه لكونه من الامور العظيمة التي
تتوفّر الدواعي على نقلها واشاعتها سيما من الاعداء ومَنْ
يدعي نسخ دينه · لانه اقوى حجةٍ له في نسخه لكنه لم
يتواتر باتفاق · واما الثالث وهو سكوته فلأَنه يقتضي
ثبوت دينه مرةً واحدة وعدمَ تكرّره لان الشيءَ اذا
أُطلق يتحقق بالمرّة الواحدة وهذا معلوم البطلان لتقرر
شرع موسي الى وقت ظهور المسيح فاجابهم النصارى

المصدّقون للمسيح القائلون بان نسخ الشرائع ممكن بأَن تواتر
دوام السبت عن موسى باطل· ولو كان متواتراً كما زعمتم
لاَحتُجَّ به على المسيح· ولو احتُجَّ به عليه لنُقل الينا متواتراً
لتوفر الدواعي على نقله ولا تواتر· واما قولكم اكان صرَّحَ
بدوام دينه او بعدم دوامه او سكت فجوابه انه صرَّح
بدامه الى ظهور الناسخ وهو المسيح · وانما لم ينُقل ذلك
تواتراً لقلة الدواعي منهم الى نقله لما فيه من الحجة
عليهم·والنسخ في الحقيقة ليس هو أبطالاً وانما هو تكميل·
وفي التوراة احكام عامة واحكام مخصوصة إِما باشخاص
واما بأزمان · واذا انتهي ذلك الزمن لم يبقَ ذلك
الحكم لا محالة ولا يقال انه ابطال · واليهود لو عرفوا
لِمَ ورد التكليف بملازمة السبت وهو يوم اي شخص يوم
من الاشخاص وفي مقابلة أيّة حال وجزء أيّ زمن
عرفوا أنّ شريعة المسيح حقٌّ واليهودُ هم الذين اعتدوا في
السبت فمسخهم الله قِرَدةً وخنازير· وقال المسيح ما

جئتُ لأبطال التوراة بل جئتُ لاكمّلها قال صاحب التوراة النفس بالنفس والعين بالعين والأَنف بالأَنف والجروح قصاص . وانا اقول اذا لطمك اخوك على خدّك الأَيمن فضع له خدك الايسر. وجواب النصارى لليهود هو جواب المسلمين للنصارى . والذي قاله المسيح قاله محمد . فانه قال ما جئت لأُبطل الانجيل والتوراة وانما جئت لاكملهما . ففي التوراة احكام السياسة الظاهرة العامة . وفي الانجيل احكام السياسة الباطنة الخاصة . وانا جئتُ بالسياستين جميعاً . جئتُ بالقصاص ﴿ ولكم في القصاص حيوة ﴾ وهو اشارة الى السياسة الظاهرة العامة . وجئتُ بالعفو ﴿ وأَنْ تعفو اقرب للتقوى ﴾ ﴿ خُذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْف وأَعرض عن الجاهلين ﴾ وهو اشارة الى السياسة الباطنة الخاصة * وهذا دليل على أَن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين . لأَن النبوّة حكمة والحكمة اما عملية او علمية او جامعة بينهما .

وحكمة موسى كانت عملية لاشتمالها على تكاليف شاقة واعمال متعبة . وحكمة المسيح كانت علمية لاشتمالها على التجردوالروحانيات والتصوّف المحض. وحكمة محمد جامعة بينهما . فلا يجيءُ نبيٌّ بعده غير المسيح فانه ينزل ثانياً الى الارض لأنّ الذي يجيءُ بعد محمد ان كانت حكمته عملية فموسوي. وان كانت حكمته علمية فمسيحي . وان كانت جامعة بينهما فمحمدي . فقد اختتمت عليه النبوة بالضرورة * فالدين واحدٌ باتفاق الانبياء . وانما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية . فهم كرجالٍ ابوهم واحد وامهاتهم متعددة . فتكذيب جميعهم او تكذيب البعض وتصديق البعض قصورٌ ولو اصغى اليَّ المسلمون والنصارى لرفعتُ الخلاف بينهم ولصاروا اخواناً ظاهراً وباطناً . ولكن لا يصغون اليَّ لما سبق في علم الله انه لا يجمعهم على رأي واحد . ولا يرفع الخلافَ بينهم الا المسيح عند نزوله ولا يجمعهم لمجرّد كلامه مع انه يحيي الموتى ويبرئ

الاكمه والأبرص . ولا يجمعهم الاّ بالسيف والقتل . ولو جاءني مَنْ يريد معرفة طريق الحق وكان يفهم لساني فهماً كاملاً لأوصلته الى طريق الحق من غير تعب لا بأن يقلدني بل بأن يظهر الحق له حتى يعترف به اضطراراً *

وعلوم الانبياء من حيث خطابهم للعامة دائرة على ما يصلح الناس في معاشهم ومعادهم . وماجاءوا ليجادلوا الفلاسفة ولا لأبطال علوم الطب ولا علوم النجم ولا علوم الهندسة وانما جاءوا باعتبار هذه العلوم على وجه لا يناقض التوحيد ونسبة كل ما يحدث في العالم الى قدرته وارادته سبحانه فما جاءوا لمنازعة من يقول الجسم مركَب من العناصر الاربعة . ولا مَنْ يقول ان الارض كرويّة الشكل . ولا مَنْ يقول ان خسوف القمر بسبب توسط الارض بينه وبين الشمس . فان امثال هذه الامور لا تضادّ ما جاءت به الانبياء . وبحثُ الانبياء في العالم انما هو عن كونه حادثاً او قديماً ثم اذا ثبت حدوثه فسواء كان

كُرَةً أو بسيطاً وسواء كانت السموات وما تحتها ثلاث
عشرة طبقة او اقلّ او اكثر فالمقصود كونه من فعل الله.
ومَنْ قال هذا مناقض للدين او المنازعة فيه من الدين
فقد جنى على الدين . وضرر الشرع من جهة مَنْ ينصره
لا بطريقته اكثر ممن يطعن فيه ﴿ خاتمة ﴾ ان المكذب
للانبياء المستغني بعقله عما جاءوا به من الاعمال والعبادات
مغرور . وكل ما جاء في فضل العلم وذم الجهل فهو
دليل على ذم الغرور . لان الغرور عبارة عن بعض انواع
الجهل اذ الجهل هو ان يُعتقد الشيء على خلاف ما هو
عليه . فمهما كان الانسان يعتقد شيئاً يوافق هواه وكان
السبب الموجب لاعتقاده دليلاً فاسداً فهو مغرور *
وانواع الغرور والمغرورون كثير ونذكر نوعاً واحداً
وهم الذين غرّتهم الدنيا فنقول . قال الذين غرّتهم الدنيا
الحاضرُ خيرٌ من المنتظر . والدنيا حاضرةٌ والآخرةُ
منتظرة فالدنيا خيرٌ فلابدّ من الاشتغال بها وبما يصلحها .

وقالوا اليقين خير من الشك ولذّات الدنيا يقينٌ ولذات الآخرة شكٌّ فلا نترك اليقين لأجل الشك • ودواء هذا اما بتصديق الانبياء فيما قالوا واما بالدليل والبرهان• أَمَّا تصديق الانبياء مجرداً فهو مرتبة العوام · ويخرج المصدق لهم من الغرور · وينزَّل هذا منزلة تصديق الصبيّ والدَه في أَن حضور المكتب خيرٌ من حضور اللِّعِب مع انه لا يدري وجه كونه خيراً * واما البرهان فهو ان يعرف فساد هذا الدليل وفيه اصلان · احدهما ان الدنيا حاضرة والآخرة منتظرة وهذا صحيح ·والآخر ان الحاضر خير من المنتظر · وليس كذلك · بل ان كان الحاضر مثلَ المنتظر في المقدار فهو خير · وان كان اقلّ منه فالمنتظر خير · فأنّ غير المغرور يبذُل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة منتظرة ولا يقول الحاضر خير من المنتظر فلا اتركه ·واذا حذَّره الطبيب من اكل الفواكه ولذائذ الأَطعمة ترك ذلك في الحال خوفاً من أَلم

المرض في المستقبل · فقد ترك الحاضر ورضي بالمنتظر·
والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الاسفار حاضراً
لاجل الربح والراحة في المستقبل · فان كان عشرة في
المستقبل خيراً من واحد في الحاضر فانسب لذة الدنيا
من حيث مدتها الى مدة الآخرة · فان غاية عمر
الانسان مائة سنة وليس هو عشرَ عشر من جزء من مائة
الف الف جزء من الآخرة فانه ترك واحداً ليأخذ
الف الف بل يأخذ ما لا نهاية له ولا حدّ · وان نظر
من حيث اللذة رأى لذة الدنيا مكدَّرةً مشوبة بانواع
المنغّصات ولذة الآخرة صافيةٌ غير مكدّرة · فأذاً انه
غلط في قوله الحاضرُ خيرٌ من المنتظر * وأَما الدليل
الآخر وهو قوله اليقين خيرٌ من الشك والدنيا يقين
فهو اكثر فساداً من الأَول · اذ اليقين خيرٌ من الشك
اذا كان مثلَه والاّ فالتاجر في تعبه على يقين وفي ربحه
على شك · والمتعلم في اجتهاده وتعبه على يقين وفي

ادراكه رتبة العلمـاء على شك . والصيّاد في تردده في
مواضع الصيد على يقين وفي الظفر بالصيد على شك .
وكلٌ هذا تركٌ لليقين بالشك . ولكن التاجر يقول ان
لم اتّجر بقيتُ جائعاً . وان اتّجرتُ كان تعبي قليلاً
وربحي كثيراً . وكذلك المريض يشرب الدواء المرّ وهو
من الشفاء على شك . ومن مرارة الدواء على يقين .
لكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالنسبة الى ما اخافه
من المرض والموت . فكذلك مَنْ شكَّ فيما قاله الانبياء
في الاخرة بعد الموت فلازمٌ له بحكم العقل والحزم الذي
هو دأب العقلاء ان يقول الصبر اياماً قلائل وهو مدة
العمر قليل بالنسبة الى ما يقال من امور الآخرة . فأن
كان ما قيل كذباً فلا تفوتني الاَّ الراحة والتنعم ايامَ
عمري . وان كان ما قيل صدقاً فأبقى في النار أبد
الآباد . وهذا لا يُطاق . ولهذا قال بعض المصدِّقين
للانبياء لبعض المكذّبينْ يا هذا ان كان الذي قلتَه انتَ

حقاً فقد تخلَّصتَ وتخلصنا . وان كان الذي قلتُه انا حقاً فقد تخلصنا وهلكتَ انت * وأَما الاصل الثاني وهو أن الآخرة شك فهو خطأ . بل هو يقين عند العقلاء . وطريق زوال هذا الغرور هو التصديق للانبياء والعلماء بوجود الآخرة وما أَعدَّ الله فيها للمطيعين والعاصين . ومثاله مثال مريض لا يعرف دواءَ علته وقد اتفق الأطباء كلهم على ان دواءه النَّبت الفلاني فان المريض يصدقهم ولا يطالبهم بالبرهان على صحة قولهم . بل يتيقن بقولهم ويعمل به ولو بقي معتوهٌ او صبي يكذبهم في ذلك . اذ المريض يعلم انهم اكثر عدداً ممن كذَّبهم واعظم منه فضلاً واعلم منه بالطب . ولو ركن المريض الى قول المعتوه وترك قول الاطباء كان معتوهاً مغروراً فكذلك من نظر الى المقرّين بالآخرة والمصدقين بها وجدهم أعلى الناس رتبةً في العقل والمعارف ووجد المكذبين بالآخرة أخسَّ الناس من البطّالين الذين غلبت عليهم

الشهوات البهيمية · فكما ان قول المعتوه لا يزيل ثقة القلب بما اتفق عليه الاطباء فكذلك قول هؤلاء البطالين الذين بقوا محبوسين في مدركات الحواس لا يشكك في قول الانبياء والعلماء

الباب الثالث في فضل الكتابة

اعلموا انه تقرر ان الانسان مدنيّ بالطبع اذ الأنسان الواحد لو لم يكن في الوجود الاَّ هو والاَّ الامور الموجودة في الطبيعة لهلك الانسان او ساءت معيشته · فالانسان محتاج الى امور زائدة عما في الطبيعة مثل الغذاء المصنوع فأن الاغذية لا تلائم الانسان والملابس لا تصلح له الاَّ اذا صارت صناعية · فلذلك يحتاج الانسان الى جملة من الصناعات حتى تسهل اسبابُ معيشته والانسان الواحد لا يمكنه القيام بالصناعات كلها · فلا بد من المشاركة والاجتماع حتى يخبز هذا لذاك وينسج ذاك

لهذا . وحينئذٍ فيحتاج الانسان الى ان تكون له قدرة
على ان يعرِّف الآخر الذي هو شريكه ما في نفسه
بعلامة وضعية . وهي اما أشارة واما لفظ واما كتابة .
والاشارة تتوقف على المشاهدة . واللفظ يتوقف على
حضور المخاطَب وسماعه . واما الخَطُّ فلا يتوقف على
شيء فهو اشرفها . وهو خاصية النوع الانساني . فاللفظ
اشرف من الاشارة . والكتابة افضل من النطق . لأن
الاشارة لا تصلح الاَّ للشيء المرئي الحاضر . وهي عبارة
عن تحريك الحدقة الى جانب معيَّن . فالأشارة نوعٌ
واحد أو نوعان . فلا تصلح لتعريف الاشياء المختلفة .
وايضاً اذا أُشير الى شيء فلذلك الشيء ذاتٌ قامت بها
صفات كثيرة فلا يُعرف بسبب تلك الاشارة ان المراد
تعريف الذات وحدها او الصفةِ الفلانية . واما اللفظ
فانه وافٍ بجميع ذلك . لأنَّ اللفظ يتناول الموجود
والمعدوم . ويتناول ما تصح الاشارة اليه وما لا تصح

الاشارة اليه · ويفهم المقصود منه دون ابهام · والكتابة اشرف وانفع من الاشارة واللفظ · لأن القلم وان كان لا ينطق فانـه يُسمِعُ اهلَ المشرقِ واهل المغرب · فما جُمِعت العلوم ولا قُيِّدت الحكمة ولا ضُبطت اخبارُ الأَولين ومقالاتهم ولا كُتُب الله المنزلة الاَّ بالكتابة · ولولا الكتابة ما استقام للناس دينٌ ولا دنيا * فالكتابة عين العيون بها يبصر الشاهدُ الغائب · وفي الكتابة تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان · ولذا قيل القلمُ احد اللسانين · بل الكتابة ابلغ من اللسان · فأنّ الانسان يقدر على كتابة ما لايقدر أن يخاطب به غيره · و يبلغ المقصود حيث لا يمكن الكلام مشافهة · ولهذا نهى شرع الاسلام عن تعليم النساء الكتابة لأن المرأة قد لايمكنها لقاءُ مَنْ تهوى فتكتب له · فتكون الكتابة سبباً للفتنة* ومن المعلوم ان البيان بيانان اثنان · بيان اللسان و بيان البَنان · ومن فضل بيان البنان ان مـا تثبته الاقلام

باقٍ مع الايام . وبيان اللسان تدرسه الاعوام . وقوام الدين والدنيا بشيئين السيف والقلم . والسيف تحت القلم . ولله در من قال

كذا قضى الله للأقلام مذ بُريت
أنّ السيوفَ لها مذ أُرهفت خَدَمُ

وقد قدّمنا ان الملكاتِ الصناعية تُفيد عقلاً زائداً . والكتابة من بين الصنائع اكثر افادة لذلك . لأنها تشتمل على علوم وانظار . اذ فيها انتقال من صوَر الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية . ومنها الى المعاني . فهو ينتقل من دليل الى دليل . وتتعوَّد النفوس ذلك دائماً . فيحصل لها ملكة الانتقال من الدليل الى المدلول . وهو مقتضى النظر العقلي الذي يكتسب به العلوم المجهولة . فيحصل بذلك مزيد عقل وزيادة فطنة . والكتابة وان عظمت منفعتها فهي مفرَّعة عن النطق . ولكن قد يوجد في الفرع ما لا يوجد في الاصل . فيكون في

الفرع ما في الاصل وزيادة • بيانهُ أَنّ بدن الانسان لا يتم الا بالقلب الذي هو معدن الحرارة الطبيعية • ولا بدّ من وصول النسيم البارد اليه ساعةً بعد ساعة حتى يبقى على اعتداله ولا يحترق • فخُلقت الآلات في بدنه بحيث يقدر الانسان بها على ادخال النسيم البارد في قلبه • فأذا مكث ذلك النسيم لحظة تسخَّن وفسد • فلزم اخراجه • فالصانع الحكيم جعل النَفَس الخارج سبباً لحدوث الصوت • ثم ان الصوت سهل تقطيعه في المحابس المختلفة فحصلت هيئات مخصوصة بسبب تقطيع ذلك الصوت في تلك المحابس • وتلك الهيئات المخصوصة هي الحروف • ثم ركَّبوا الحروف فحصلت الكلماتُ ثم جعلوا كلّ كلمةٍ مخصوصةٍ معرّفةً لمعنى مخصوص • ثم اضطروا الى الكتابة وعظمت الحاجةُ اليها • وظاهر أن ادخالها في الوجود صعب • وذلك انّا لو افتقرنا الى ان نضع لتعريف كل معنى من المعاني نقشاً مخصوصاً لافتقرنا الى وضع نقوش

لا نهاية لها فدبَّروا فيه طريقًا لطيفًا · وهو أنهم وضعوا بأزاء كل واحد من الحروف النطقية البسيطة نقشًا خاصًا · ثم جعلوا النقوش المركَّبة في مقابلة الحروف المركبة · فسهلت الكتابة بهذا الطريق · فلهذا كانت الكتابة مفرَّعة عن النطق · ولكن حصلت في الكتابة منفعة عظيمة وهو ان عقل الانسان الواحد لا يقدر على استنباط العلوم الكثيرة · فصار الانسان اذا استنبط مقدارًا من العلم أثبته بالكتابة فاذا جاء انسان آخر ووقف عليه قدر على استنباط شيء آخر زائد على ذلك الاول فظهر أنّ العلوم انما كثُرت باعانة الكتابة

فصلٌ

جميع كتابات الأُمم من سكان المشرق والمغرب اثنتا عشرة كتابة · وهي الفارسية والحِميرية والعربية واليونانية والسريانية والعبرانية والرومية والقبطية والبربرية والأندلسية والهندية والصينية · وخمس من هذه بطَل

استعمالها ولم يبقَ من يعرفها من الأُمم · وهي الحميريـة واليونانية والقبطية والبربرية والأندلسية · والباقيات مستعملات في بلدانها • اما الكتابة الفارسية فأنه وان كان جنسها واحداً ففيها ستّة انواع من الخطوط · وحروفها مركبة من ابجد هوز كلمن سفارش تخذغ فالثاء المثلثة والحاء المهملة والصاد والضاد والطاء والظاء والعين المهملة والقاف سواقطُ عندهم · واول من وضع الكتابة الفارسية كهمورث ويقال كيومرث ثالث ملوك الفُرْس الأُولى · ويقال انه اوّل مَنْ تكلم بالفارسية · وقيل اول من كتب بالفارسية الضحّاك · وقيل فريدون * وملوك الفُرس طبقتان فعدة الطبقة الاولى تسعة عشر ملكاً منهم امرأتان · آخرهم دارا بن دارا الذي قتله الاسكندر اليوناني ••ودثرت الفُرس الأُولى كدثور الأُمم الماضية •وعدد ملوك الفُرس الثانية ثلاثون ملكاً منهم امرأتان · اولهم اردشير بن بابك

ابن ساسان الذي وُضع له النَّرد . وآخرهم يزدجرد ابن شهريار . وهم الاكاسرة . واصحُّ ما قيل في مدة الفُرس من ابتداء ملك كَهمورث بن اميم الى انقضاء ملكهم من الارض ثلاثة الآف سنة ومائة سنة واربع وستون سنة . وانقضى ملكهم بقتل يزدجرد بن شهريار في خلافة عثمان بن عفان سنة اثنين وثلاثين من الهجرة . وكانت الفُرس قليلة الكتب والرسائل . ولم يكن لهم اقتدار على بسط الكلام واخراج المعاني من النفوس . الى ان مَلَكَ زرادشت صاحبُ شريعة المجوس واظهر كتابه العجيب بجميع اللغات والزم الناس بتعليم الخط والكتابة فمهروا في ذلك . ولغات اهل فارس في القديم خمس . الفهلوية والدَرَيَّة والفارسية والخوزية والسريانية . اما الفهلوية فمنسوبة الى فهلة اسم يقع على خمسة بلدان . وهي اصبهان والريّ وهمدان ونهاوند وأَذْرَبيجان . واما الدرية فمنسوبة الى دار الملك . وهي لغة اهل المدائن .

وبها كان يتكلم مَنْ بدار الملك • واما الفارسية فيتكلم بها الموابذة والعلماء • وهي لغة اهل فارس • واما الخوزية فبها كان يتكلم الملوك والأشراف في الخلوة مع حاشيتهم واصحابهم • واما السريانية فكان يتكلم بها اهل السواد الاَّ انها سريانية غير فصيحة * واما الكتابة العربية فالصحيح ان اول مَنْ خطَّ بالعربي مُرامِرُ بن مُرَّة وكان يسكن الأنبار • ومن الأنبار انتشرت الكتابة في العرب • واصل الخط العربي هو الخط الكوفي • والنقْط حادث في الخط العربي • حدث بعد الاسلام • والذي نقل الكتابة من الأنبار الى الحجاز حربُ بن أُميَّة جدّ الملوك الأَموية • وهذه الطريقة الموجودة الآن اخرجها من خط الكوفيين وأبرزها في هذه الصورة ابو علي محمد بن مقلة وزير المقتدر بالله العباسي • ثم جاء بعده ابو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البوّاب فهذّب هذه الطريقة وكساها طُلاوةً وبهجةً • وهذه الكتابة

العربية قريبة الحدوث . لأن العرب كانوا اهل حفظ ورواية . اغناهم حفظهم عن الكتابة . وكانت اشعارهم هي دواوين تواريخهم وضابطة لأيامهم وحروبهم . ولم يكن فيها عالمٌ معروف ولا حكيمٌ مذكور* وأما الكتّابة الحِمْيَرية فقد قدمنا أنها درست . وكانت تسمى المُسْنَد وحروفها منفصلة غير متصلة . وكانوا يمنعون العامة من تعلمها . ولا يتعلمها احدٌ الاّ بأذن الملك . فجاءت ملة الأسلام وليس بجميع اليمن من يقرأ ويكتب . قيل اوَّل من وضع كتابة المسند هو حمير ابو ملوك اليمن . وهو سبأ . لأنه لما اكثر الغزو في اقطار الارض سموه سبا . وهو الذي ابتنى صِقِلّيّة وكثيرا من مدائن المغرب . مَلَكَ المغرب مائة سنة . ووصل مُلْك ملوك حمير من جهة المغرب الى طنجة . ومن جهة المشرق الى سمَرْقَنْد . وهي مدينة الصُغْد . والذي دخلها وهدمها شمر بن افريقيش فسميت شمركند اي شمر أخربها لأن معنى كند بالفارسي

اخرب . ثمّ أن العرب عرّبوها وقالوا سمرقند . ثم ظهر له في بنائها فبناها . وكتب على بابها بالكتابة الحميرية هذا فعل شمر الأشمّ ملك العرب لا العجم . فَمَنْ بلغ هذا المكان فهو مثلي . ومَنْ جاوزه فهو افضل . وآخر ملوك حمير ذو جَدَنٍ . وكانت مدة ملكهم الفين وعشرين سنة . ثم ملك اليمنَ بعدهم من الحبشة اربعة . ومن الفرس ثمانية ثم جاء الاسلام فصارت لهم * واما الكتابة السريانية فهي ثلاثة انواع . وأقدم الانواع عندهم لا فرق بينه وبين العربي في الهجاء الاّ ان الثاء المثلثة والخاء والذال والصاد والضاد والعين كلها سواقط عندهم وكذا لام الف . وتركيب حروفها من اليمين الى اليسار . وبالسريانية كان يكتب الكلدانيون . ومعنى الكلدانيين الموحّدون . وهم أُمة قديمة مسكنهم العراق وجزيرة العرب . منهم النماردة ملوك الارض بعد الطوفان * ولغة السريانية الفصيحة شأنها عجيب لأن الكلام فيها

يتركب من الحروف الهجائية · فكل حرف هجاء في السريانية يدل على معنى مفيد · فأذا جمع الى مفيد آخر حصلت منهما فائدة الكلام · وتختلف معاني الحروف باختلاف الحركات والسكون · والكلام في كل لغة غير السريانية يتركب من الكلمات لا من الحروف الهجائية · وكانت اللغة السريانية صافيةً من آدم الى ادريس · وهو الملقب بهرمس الهرامسة والمثلث بالنعمة لأنه كان نبياً ملكاً حكيماً · وهو باني الأهرام بمصر على الصحيح · وهو اوّل مَنْ تكلم في الأجرام العُلوية والحركات النجومية واول مَنْ نظر في الطب وألَّف في البسائط والمركَّبات وأوّل مَنْ وضع الهندسة · فلما ذهب أدريس وقع التبديل والتغيير في اللغة السريانية وجعل الناس ينقلونها عن اصلها ويستنبطون منها لغاتهم · واول لغة استنبطت من السريانية لغةُ الهند · فهي اقرب اللغات الى السريانية · ولهذا كانت اللغة السريانية ساريةً في جميع اللغات

سرَيان الماء في العود . لأنّ حروف الهجاء في كل كلمة من كل لغة قد فُسِّرت في السريانية ووُضعتْ لمعانيها الخاصّة . مثاله احمد يدلّ في اللغة العربية اذا كان علماً على الذات المسماة به وفي اللغة السريانية تدل الهمزة المفتوحة التي في اوله على معنىً والحاء المسكنة على معنىً والميم المفتوحة على معنىً والدال ان كانت مضمومة على معنى وان كانت مفتوحة على معنى وان كانت مكسورة على معنىً وهكذا كل كلمة مثل زيد وعمرو ورجل وامرأة * والفارقليط صار في اللغة العربية علماً على محمد بن عبدالله . وفي السريانية كل حرف من حروف هذه الكلمة يدل على معنى الى آخر حروفه * واما الكتابة العبرانية فهي من ابجد الى آخر قرشت وما بعده سواقط . وهي مأخوذة من السريانية ومنسوبة الى عابرَ بن شالح واضعِها * واما الكتابة الرومية اللطينية فأوّل مَنْ اخترع حروف اللسان اللطيني واثبتها كرمنش بن مرسية بن شمس

ابن مزكية · ولم تكن قبله · وذلك بعد اربعة الآف وخمسين من مبدأ الخليقة أخذها من كتابة اليونان · واليونان أخذوا كتابتهم من أهل صور · واهل صور (احدى مدائن الشام القديمة) اخترعوا الكتابة · وهي التي كانت منشأً للحروف اليونانية · ومن كتابة اليونان اخذ اللاطينيون كتابتهم التي هي كتابة جميع اهل أروبا مع بعض اختلاف · وقد اندرست الكتابة اليونانية·وقلم اليونان والروم من اليسار الى اليمين مرتب على ترتيب حروف ابجد وحروفهم ابج وزطي كلمن سعفظ قرشت ثخ صغ · فالدال والهاء والحاء والذال والضاد ولام الف سواقط · والسبب الذي من اجله يكتبون من اليسار الى اليمين أنهم يقولون ان شأن الجالس ان يستقبل المشرق لأنه مطلع النيّرات ومحلُّ ظهور النور فأذا توجّه الى المشرق يكون الشمال على يساره فأذا كان كذلك فاليسار يعطي اليمينَ القوّة · وسبب احر

وهو أنّ حركة الاعضاء من استمداد الكبد . والكبد يستمد من القلب . والقلب من جهة اليسار . فطريق الكتابة ان يبتدأَ من الجهة التي منها الاستمداد

﴿ تنبيه ﴾ حروف الكتابة العربية اكثر من حروف جميع كتابات الأُمم . فأنها ثمانية وعشرون حرفاً . وهي : ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ . ويعبرون عنها بأبجد . وهي عبارة عن ثمان كلمات مشهورة مفتتحة بهذه الكلمة جمع فيها جميع حروف الكتابة العربية بلا تكرير . وقد جرت العادة بتعليمها المبتدئين بعدما علموهم حروف الهجاء مفرداتها ومركباتها الثنائية على ترتيب مألوف للطباع منشِّط لهم على أخذه وضبطه . والفائدة في ذلك هو التنبيه للمبتدي بعد تعلمه المفردات والثنائيات أنّ في الكلام تركيباتٍ ثلاثيات ورباعيات غيرَ منتظمة على نظام مألوف ليستأنس بوقوع المخالفة بين الحروف فيسهلَ عليه الشروعُ في الكلام المطلق . وفيه فائدة

اخرى وهي ايناس المبتدئين بالفاظ مستعملة في معنى من المعاني بعد ما كانوا يستعملون تركيبات من الحروف مهملةً لا معنى لها ٠ ويؤيد هذا ان معنى ابجد أَخذ ومعنى هوّز ركب ومعنى حُطي وقف على المقصود ومعنى كلمن صار متكلماً ومعنى سعفص اسرع في التعلم ومعنى قرشت اخذه بالقلب ومعنى ثخذ حفظ ومعنى ضظغ أَتمَّ وتكون كلُّها على صفة الماضي من الثلاثي او الرباعي ٠فمعنى المجموع على ترتيبها اخذ ركب وقف على المقصود صار متكلماً اسرع في التعلم اخذه بالقلب حفظ اتمّ ٠ وعلى هذا يمكن اعتبار فائدة اخرى فيها وهي تأْليف المبتدئين بالمعاني المربوطة بعضِها ببعض بنوع من الارتباط ليتفطّن المتعلم الذكي اذا عرفها الى ان الاهمّ له اللائقَ به في حال التعلم ما يُفهَم من هذه الكلمات من الأَخذ والتركيب والوقوف على المقصود وتكرار التكلم والاسراع في التعلم والاقبال عليه بالقلب وحفظه له والقيام بحقه

من الأتمام وغيره • واما قول صاحب القاموس وابجد
الى قرشت (وكلمن رئيسهم) ملوك مَدْيَنَ وضعوا الكتابة
العربية على عدد حروف اسمائهم هلكوا يوم الظُلّة الى
ان قال ثم وجدوا بعدهم ثخذ ضظغ فسمّوها الروادف فهو
قول غريب من صاحب القاموس بعيد عن الصواب
لا تخفى غرابته من وجوه كثيرة • وهذه الكلمات الثمانية
فرّعوا عليها من قديم الزمان الحسابَ المشهور بالجُمَّل
بضم الجيم وفتح الميم فأن جميع حروف الهجاء المجموعة
فيها ثمانية وعشرون حرفاً فجعلوا سبعة وعشرين حرفاً منها
لأصول مراتب الاعداد من الآحاد والعشرات والمئات
وواحداً للألوف فلم يحتاجوا معها الى ضم شيء آخر
اليها اصلاً فضلاً عن تكرارها كما احتاج اهل الهند في
أرقام حسابهم الى ضمّ علامة صفر في عشراتهم وصفرين
في مئاتهم وثلاثة في آحاد الآلاف وهكذا . فيحصل
المقصود في جميع المراتب من نفس هذه الحروف بالأفراد

والتركيب والتقديم والتأخير كما هو مقرَّر معروف

﴿ خاتمة ﴾ من الناس مَنْ ينكر التأليف والتصنيف وكتابة العلوم في هذا الزمن . وهذا الانكار خطأ . اذ لاوجه لانكار التصنيف اذا صدر من العلماء الكاملين البالغين مرتبةَ التصنيف وانما يحمل هذا المنكِرَ على انكاره التنافسُ والحسد الجاري بين كل متعاصرين ولله دَرُّه من قال

قُلْ لمن لا يرى المعاصر شيئًا ويرى للاوائل التقديما
ان ذاك القديم كان حديثًا وسيبقى هذا الحديثُ قديما

فانّ نتائجَ الافكار لاتقف عند حدّ وتصرفات العقول لا نهاية لها . لان العالَم المعنويَّ واسع كالبحر الزاخر . والفيض الالهي ليس له انقطاع ولا آخِر . وغير محال ولا مستبعدٍ ان يذّخر الله لبعض المتأخرين ما لم يعطه لكثير من المتقدمين . فقول القائل ما ترك الأَول للآخر شيئًا خطأ . والقول الصحيح هو كم ترك الاوّل

للآخرِ · ويقال لا كلمةَ اضرُّ بالعلم من قولهم ما ترك الاول للآخر شيئاً لان هذه الكلمة تقطع الآمالَ عن زيادة العلم على علم المتقدمين ويقتصر الآخر على ما قدّمه الاول وهو خطرٌ عظيم وقولٌ سقيم · فالاوائل فازوا باستخراج الاصول وتمهيد القواعد · والأواخر بالاستنباط من الاصول وتشييد تلك القواعد وزيادة البناء عليها · وان تصانيف العلوم كثيرة لاختلاف اغراض المصنفين وهي تنحصر من جهة المقدار في ثلاثة اصناف · الاول مختصرات تجعَل تذكرةً لرؤس المسائل · ينتفع بها المنتهي للاستحضار · وربما افادت بعض المبتدئين الاذكياء · والثاني مبسوطات تقابل المختصرات · وهي ينتفع بها للمطالعة · والثالث متوسطات ونفعها عام * والتصنيف على سبعة اقسام · لا يصنف عالم عاقل الا فيها · وهي اما شيءٌ لم يُسبَق اليه فيخترعه · او شيءٌ ناقص فيتمّه · او شيءٌ مغلَق يشرحه ويبيّنه · او شيءٌ طويل يختصره

دون ان ينقص شيئاً من معانيه · او شيءٌ متفرق يجمعه · او شيءٌ مختلط يرتبه · او شيءٌ اخطأَ فيه مؤلفه فيصلحه · ويشترط في التصنيف اتمامُ الغرض الذي وضع الكتاب لأَجله من غير زيادة ولا نقص · وعدمُ استعمال اللفظ الغريب الاَّ في الرموز والالغاز · وينبغي ان يكون التصنيف مسوقًا على حسب أدراك اهل الزمن وعلى قدر ما تصل اليه عقولهم · فاذا كانت الخواطر ثاقبة قام الاختصار لها مقامَ الاكثار واستغنت بالتلويح عن التصريح · والاَّ تكن الخواطر كذلك فلا بدَّ لها من زيادة الكشف والبيان · وقد جرت عادة المصنفين ان يذكروا في صدور كتبهم اشياءَ سمَّوْها الرؤسَ · منها الغرض والباعث الذي وقع التصنيف لأجله · ومنها المنفعة ليتشوّق الطالب الناظر في التأْليف اليها · ومنها العُنوان الدالُّ على ما يأتي تفصيله · ومنها تسمية المؤلف نفسه ليُعلَم قدرُه في العلم · وغيرُ هذا · والمصنفون على

فِرَق منهم مَنْ له في العلم ملَكة تامة ودراية كاملة وفهم ثاقب . فتصنيف هذه الفرقة عن قوة بصيرة ونفاذ فكر وسداد رأي . ومنهم مَنْ له ذهن ثاقب وعبارة سهلة طالع الكتب فاستخرج دُررها واحسن نظمها وهذا ينتفع به المبتدؤن والمتوسطون . ومنهم من صنَّف وجمع ليفيد نفسه لا لأفادة غيره وهذا لا اجرَ عليه . ويلزم كلَّ مصنف اذا تمم ما صنفه ان لا يخرجه للناس ولا يطرحه من يده الاَّ بعد تهذيبه وتنقيحه واعادةِ مطالعته . فانه قد قيل الانسان في سعة وفي سلامة من أفواه جنسه ما لم يصنّف كتاباً او يقُلْ شعراً . ويقال من ألّف فقد استشرف (اي مدَّ عنقه للمدح او الذم) فان احسن فقد استعطف (اي عطفت عليه القلوب) وان اساء فقد استقذف (اي عرض نفسه للقذف والشتم) والعالم اذا اراد تصنيف كتاب بغير لغته وبغير خطه الذي نشأَ عليها وسبقت ملكتهما اليه ربما كان ذلك عسيراً

في غاية الصعوبة • وأني لأتعجب وما تقضى عجبي من علماء فرنسا وقدرتهم على هذا • فأن الله خصهم بمزيد ذكاء وفطنة لأن مباحث العلوم انما هي في المعاني ولا بدّ في اقتناص المعاني من الألفاظ من معرفة دلالتها اللفظية والخطية عليها • واذا كانت الملكة في الدلالة راسخةً بحيث يتبادر المعاني الى الذهن من الألفاظ زال الحجاب بين المعاني والفهم ولم يبقَ الا معاناة ما في المعاني من المباحث • هذا شأن المعاني مع الالفاظ والخط بالنسبة الى كل لغة • فثبت ان اللغة ملكة في اللسان والخط صناعة ملكتها في اليد • فأذا تقدمت في اللسان ملكة العُجمة السابقة وفي اليد ملكةُ غير الخطِّ العربي صار مقصرًا في اللغة والخط العربيين • لأن الملكة اذا تقدمت في صناعة قلّ ان يجيد صاحبها ملكة في صناعة اخرى الاّ ان تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم كما في الاصاغر من ابناء العرب والعجم * وكان

علماء الملة الاسلامية في صدر الاسلام غيرَ مشتغلين بالتصنيف جارين على طريقة العرب الأُوَل للاستغناء بالحفظ . وكانوا يقولون اذا كتبنا اعتمدنا على الكتابة وتركنا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيتلف عليهم بتلف الكتاب . ويقولون ايضاً الكتاب يمكن ان يزاد وينقصَ منه ويغيَّر . والذي يحُفظ لا يمكن تغييره . ويحكى في هذا المعنى حكايةٌ وقعت في زمن المأمون العباسي وذلك انه جاءه يهودي يوماً على انه يشتكي من مظلمة ظُلمها فلما تكلم اليهوديّ تعجب المأمون من فصاحته وبلاغته وقوة قلبه وظرافته ولطافته فعرض عليه الاسلام فامتنع . ثم بعد سنتين جاءَ مسلماً الى المأمون . فسأله عن سبب اسلامه فقال له اني لما ذهبت من عندك قلتُ في نفسي اختبر الأَديان فعمَدتُ الى التوراة فكتبت منه عدة نسخ فقدّمت بعضَ الكلمات وأخَّرتُ البعض وأسقطت البعض وذهبت بالنسخ الى مجمع أُحبار اليهود

فتساقطوا عن النسخ واشتروها . ثم عمدتُ الى الأنجيل وعملت به ما عملت بالتوراة وذهبت بالنسخ الى مجمع القسيسين فتساقطوا على النسخ واشتروها . ثم عمدت الى القرآن وفعلت به ما فعلت بالتوراة والانجيل وذهبت بالنسخ الى مجمع العلماء فصار كل من يتصفح النسخ وينظر فيها يقول هذا ما هو قرآن ويرميها . فعلمت ان الكتب المنزلة كلّها تقبل التبديل والتغيير الا القرآن لكونه محفوظاً في صدور أهله فأسلمتُ لهذا السبب * ثم لما انتشر الاسلام واتسعت مملكته وحدثت الفتن شرعوا في تدوين الحديث النبوي وقوانين الشريعة . واشتغلوا بالنظر والاستدلال والاستنباط وتمهيد القواعد والاصول وترتيب الفوائد والفصول . وكان ذلك مصلحة عظيمة . ومع هذا فالسند عند علماء الاسلام شرط في العمل بما في الكتب والاحتجاج بها . والسندُ هو ان يعطي المصنف كتابه الى آخر ويقول له أذنتُ لك ان تروي عني

هذا الكتاب . ويعطيه الذي أخذه عن المصنف الى آخر بهذا الشرط . وهكذا نسبة كلّ علم . واذا عُدم هذا السند في كتاب يكون غيرَ معتبر ولو تكون فيه العلوم الكثيرة . ولا يصح نسبة ما في الكتاب الى مَنْ نسب اليه الكتاب الا بشرط السند . وهذا شيءٌ خُصّ به علماء الاسلام وشريعتهُ . فان احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم رواها عنه العدول ثم أخذها عن اولئك العدول عدولٌ آخرون . وهكذا . حتى وصلت للبخاري مثلاً وهو عدل . ثم البخاري صنَّف كتابه ورواه عنه تسعون الفاً ثم انتشر في المشرق والمغرب بالسند حتى وصل الينا * واما علوم الاوائل والفلاسفة فانها كانت في صدر الاسلام مهجورةً الى دولة بني العباس وكان أوّل من اعتنى منهم بالعلوم ابو جعفر المنصور وكان مقدّماً في علم الفلسفة والنجوم . ثم لما وصلت الخلافة الى المأمون بن الرشيد تمّم ما بدأ به جَدّه واستخرج العلم

من معادنه بعلو همته . فراسل ملوك الروم وسألهم كتبَ الفلاسفة فبعثوا اليه من كتب افلاطون وارسطو وبقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم . واحضر لهذه الكتب مَهَرَةَ المترجمين فترجموا له على غاية ما امكن . ثم الزم الناس قراءتها ورغَّبهم في تعلمها . اذ المقصود من المنع منها في صدر الاسلام هو لأجل ضبط قواعد الشريعة ورسوخ العقائد الصحيحة وقد حصل ذلك. مع ان اكثر الفلسفة والهيئة والهندسة لاتعلُّق لها بالديانات. ولما نُقلت علوم الأُمم بالترجمة وحدثت الملكات لأَهل الملة الاسلامية نقلوا هذه العلوم الى علومهم وبقيت تلك الدفاتر التي باللغة الاعجمية نسياً منسياً . واصبحت العلوم كلُّها بلغة العرب واحتاج القائمون بها الى معرفة الدلالات اللفظية والخطّية في لسانهم دون ما سواه من الأَلسن لدروسها وذَهاب العناية بها

﴿ خاتمة الرسالة ﴾

﴿ في انقسام الناس بحسب العلوم والمعارف واختلاف المذاهب ﴾

اعلموا أَن الناس قسمان · قسمٌ اعتنى بالعلوم فظهرت منهم انواع المعارف فهم صفوة الله من خلقه · وقسمٌ لم يعتنِ بالعلوم عناية يستحق بها اسمه · فالأَول أُممٌ · منهم الهند والفُرس واليونان والروم والافرنج والعرب والعبرانيون واهل مصر · والثاني بقية الأُمم · اما الهند فان اهله وان كانوا في اول مراتب السواد فان الله جنَّبهم سوءَ اخلاق السودان وفضَّلهم على كثير من البيض · فهم اهل الاراء الفاضلة والأَحلام الراجحة ولهم التحقيق في علم العدد والهندسة والطب والنجوم والعلم الطبيعي · ومنهم براهمة (فرقة قليلة العدد) مذهبهم ابطال النبوات وتحريم ذبح الحيوان وهذا من ضعف امزجتهم وقلوبهم · فأَن قويَّ القلب بحسب المزاج يستحسن الأَيلام ولا يستقبحه · وجمهور الهند صابئة يعبدون الملائكة والكواكب ·

وهم ينكرون النبوّات ايضاً · ولهم في تعظيم الكواكب وادوارها آراء ومذاهب · والمشهور في كتبهم مذهب السند هند (أي الدهر الداهر) ومذهب الارجهير ومذهب الأركند· ولهم في الحساب والاخلاق والموسيقى تأليفات كثيرة · ومن تصانيف حكماء الهند كتاب كليلة ودمنة · وما فيه من الحكم المنظومة بضرب الأمثال يشهد بكمال عقل واضعه · وترجم من الهندية الى الفارسية ايامَ انوشروانَ الملكِ العادل · وكان محباً في العلم وأهله · ثم تُرجم من الفارسية الى العربية ايامَ المنصور العباسي ترجمه ابن المقفَّع العالم المشهور · ويكفي اهلَ الهند شرفاً وضعُ الشطرنج الذي سار في الدنيا سيرَ الشمس وصار الناس يشهدون بالعقل لمن يُحسِن اللعب به فكيف بعقل واضعه ومستنبطه · واسم واضعه صصه ابن داهر· واسم الملك الذي وضع لأجله شهرام · وكان أردشير بن بابكَ اولُ ملوك الفرس الاخيرة وضع النَّرد

وافتخرت الفرس به فلما وضع صصه بن داهر الشطرنج
حكمت حكماء ذلك العصر بترجيحه على النَّرد. ولما عرضه
على الملك شهرام أعجبه وفرح به كثيراً . وقال لصصه
اطلب مني ما تريد من الاموال . فقال له طلبت ان
تضع حبة قمح في البيت الاول ولا تزال تضاعفها حتى
تنتهي الى الآخر فمهما بلغ من القمح تعطيني. فاستصغر
الملك ذلك وانكر عليه لكونه طلب شيئاً حقيراً عند
الملك. وكان اضمر له شيئاً كثيراً . فقال صصه ما اريد
الاَّ هذا . فرادَّه فيه وهو مصمّمٌ عليه . فأجابه الملك الى
مطلوبه. فلما قيل لأَرباب الاقلام حسبوه فقالوا ما عندنا
قمح يفي بهذا ولا بما يقاربه . فلما أُخبِرَ الملك استنكر
هذه المقالَة وأحضر ارباب الديوان وسأَلهم فقالوا له لو
جمع كل قمح في الدنيا ما بلغ هذا القدر فطالبهم ببيانه.
فقعدوا له وحسبوه فظهر له صدقُ ذلك . فقال الملك
لصصه انت في طَلَبتك اعجب حالاً من وضعك الشطرنج *

ومَنْ تأمل الشطرنج وتأمل حركات قطعه وتفكر في صورة وضعه وجده قد كشف عن سرّ من سرّ القضاء والقدر بسهولة · وذلك ان الواضع له حكيم فيما رتبه وقرّره الهمه تعالى ما قضاه في ازله وسبق به علمه وجرى بوضعه قدره · ولذلك لم يشاركه في اختراعه له مشارك · وجعل امر كلّ لاعب به من الناس راجعاً اليه وعائداً عليه · أن غلب فباجتهاده وان غُلب فبتفريطه · وان اللاعبَيْن كليهما مع تفويض الأمر اليهما في الجدّ والاجتهاد والفكر والتدبر والاكتساب والتحيل لا يخرجان في جميع ذلك عما قضاه الواضع وقدره وشرعه لهما فهما مجبوران في صورة مختارين ومختاران في صورة مجبورين · اطّلع هذا الواضع على سر عزيز من أسرار قدر الله تعالى وعلم أَن الانسان كاسب غانم او معاقب وأَنّ الله لا يظلم مِثقالَ ذرّة ولكنّ الناسَ انفسَهم يظلِمون وأَنّ اللهَ اراد من العباد ما هم فاعلون له ولم يجبرهم · ولو عصمهم

ما خالفوه كما اراد الواضع من اللاعِبين ما هم لاعبون ولم يجبرهم • فَمَن أحسن فلنفسه ومَنْ اساء فعليها • ولم يخرج واحد منهما عما قدره من البيوت والقِطَع وعددها ونقلها • ولو اراد منهما غير ذلك ما خالفاه فافهم هذا جيدًا • فالشطرنج مثالٌ حِكْمي ووضع علمي يُجلَب به حسن الرأي ويزداد به العقل ويُلهَى به عن الهمّ ويكشف عن مستور الأخلاق ويحكي صورةَ الحرب ويبين مقدارَ حلاوة الظفر بالخصم والنصر على العدوّ ومقدار مرارة القهر والخِذلان والشطرنج الكبير فيه من الزوائد جملان وزرافتان وطليعتان ودبابتان ووزير

واما الفرس فانهم امةٌ قديمةٍ من اقدم أُمم العالم واشدِّهم قوةً واسم ابيهم بالعربية فارس وباليونانية يرشور وبالفارسية يرشيرش • وكانت لهم دولتان عظيمتان طويلتان الاولى منهما الكييه وانما قيل لهم كييه لأنهم كانوا يسمون الملك منهم كَيَ فلان ومعناه التنزيه اي مخلص متصل

بالروحانيات · ويظهر من التواريخ ان مبدأها ومبدأ دولة التبابعة ملوك العرب من حِمْيَر واحد · وهذه الدولة الكيه هي التي غلب عليها الأسكندر اليوناني · والثانية الساسانية وهي المعاصرة لدولة الروم بالشام · وهذه الثانية هي التي غلب عليها المسلمون · وكان الفُرْس في اول امرهم موحدين على دين نوح الى زمن طهمورث · وهو اول من ذلّل الخيل وركبها فاعتقد دين الصابئين وقهر الفُرس على اتّباعه · وبقُوا على هذا الدين نحو الف سنة الى ان تمجّسوا بسبب زرادشت · وكان ظهوره ايام يستاسف أحدِ ملوكهم فجاء الى يستاسف وعرض عليه دينَه فأعجبه وحمل الناس على الدخول فيه وقتْل من امتنع · وجاء زرادشت بكتاب ادَّعاه وحياً كتبه في اثنى عشر الفَ جلد وسمى ذلك الكتاب ستاه · ويدور على ستين حرفاً من حروف المعجم وفسَّرهُ زرادشت وسمى تفسيره زند ثم فسَّر التفسير وسماه زنده وهذه اللفظة هي

التي عرّبتها العرب فقالت زنديق · وكان زرادشت يقول
بالاهين اثنين يزدان وأهرمن (اي النور والظلمة)
ويعبد النار · وكان هذا الكتاب ثلاثة اقسام · قسمٌ
في أخبار الأمم الماضية · وقسم في حدثان المستقبل ·
وقسم في نواميسهم وشرائعهم · وجدّد زرادشت بيوت
النيران وكان أخمدها منوشهر أحدُ ملوكهم · ورتب لهم
عيدين النيروزَ في الاعتدال الربيعي والمهرجانَ في الاعتدال
الخريفي ولما غلب الاسكندر الفُرس الأُولى أحرق هذه
الكتب · وبقوا على ذلك الى ايام سابور بن أردشير
فظهر ماني الحكيم بعد المسيح · وكان ماني يقول موجد
العالم اثنان النور خالق الخير والظلمة خالق الشر · واتّبعه
سابور قليلاً ثم رجع الى المجوسية دين آبائه وفي ايام
قباد من ملوك الفرس ظهر مزدك وكان يقول باستباحة
اموال الناس وانها مشتركة بينهم وليس لواحد ملكُ
شيء ولا تحجيرُه عن غيره · والاشياء كلها من ملك الله

لا يختص احد بشيء • وفي ايام ابرويز منهم وصلت جنود الفرس الى بيت المقدس واخذوا اسقفها ومن معه وطالبوهم بخشبة الصليب فاستخرجوها من الدفن وبعثوا بها الى ابرويز • وفي ايام بوران بنت ابرويز رُدَّت خشبة الصليب الى الجاثليق • وأمة الفرس هم اعدل الأمم واوسطهم داراً بالنسبة الى هذه المعمورة • ولهم عناية بالطب واحكام النجوم • ولهم أرصاد ومذاهب في حركاتها • واتفق العلماء على انّ اصحّ المذاهب في الادوار مذهب الفُرس • ومنهم واضع النَّرد • جعله مثالاً للدنيا واهلها فرتّب الرقعة اثني عشر بيتاً بعدد شهور السنة وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد ايام كل شهر وجعل الفصوص مثالاً للقدر وتقلبه بأهل الدنيا

واماّ اليونانيون فهم امة عظيمة القدر وهم منسوبون الى يونان • وهو في التوراة ولد يافث بن نوح لصلبه • واسمه فيها يافان بفاء تقرب من الواو فعربته العرب الى

يونان • وبلادهم رومة ايلي واناطولي وقرمان • واخوانهم
اللطينيون مساكنهم بالمغرب منهم • ومن اليونان
الاسكندر الذي قهر الملوك وغلبهم • يقال انه استولى
على خمسة وثلاثين ملكاً • ومن اليونان الحكماء المشهورون
مثل ارسطو وهو معلم الاسكندر وكان مسكنه مدينة أثينا
وهو كبير حكماء الخليقة من غير منازع أخذ الحكمة عن
أفلاطون اليونان • كان يعلم الحكمة وهو ماشٍ تحت
الرواق المظلِّل له من حرّ الشمس فسمي تلاميذه بالمشائين
وأخذ افلاطون عن سقراط و يعرف بسقراط الدنّ بسكناه
في دنّ من الطين اتخذه • وقتله قومه لما نهاهم عن عبادة
الاوثان • وكان هو اخذ الحكمة عن فيثاغورس منهم
ويقال ان فيثاغورس اخذ عن تاليس حكيم مَلَطْيَة واخذ
تاليس عن لقمان الحكيم المشهور • ومن حكماء اليونان
ذي مقراطيس وانكساغورس • وارسطو هو الذي ترجم
كتب هرمس المثلث بالنعمة • وأخرجها من اللسان

المصري الى اليوناني وشرح ما فيها من العلوم والحكمة والطِّلِسمات . وكتاب الاسطماطيس يحتوي على فتح المدن والحصون بالطلسمات والحكم ومنهـا طلسمات لأنزال المطر وجلب المياه وكتاب الاشطيرطاش في الاخبار علي سير القمر في المنازل والاتصالات وكتب اخرى في منافعَ وخواصّ لأَعضاء الحيوانات والأحجار والاشجار والحشائش . ومنهم بندقليس وكان في عمر داود النبي * وكان علماء اليونان يسمون فلاسفة الهيين (ومعنى فلا بلغتهم الحب وسوف العلم فمعنى فيلسوف محب العلم) . ولهم تصانيف في انواع العلوم . فهم ارفع الناس منزلة لما ظهر منهم من الاعتناء الصحيح بفنون الحكمة من العلوم الرياضيّة والمنطقية والمعارف الطبيعية . وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم وهم الذين اسّسوها . وفي دولة فيلادلفوس (اي محب اخيه) كانت ترجمة التوراة وكتبِ الانبياء من العبرانية الى اليونانية . ولغة الاقدمين من اليونان تسمى

الاغريقية وهي من اوسع اللغات . ولغات المتأخرين تسمى
اللطيني لان اليونان فرقتان اللطينيون والاغريقيون
واما الروم وهم الكيتم اللطينيون فهم اخوان يونان ونسبهم
الى يافث بن علجان بن نوح وبلادهم بالناحية الغربية
من خليج القسطنطينية الى بلاد الافرنك . وملك هذه
الأمة قديم . واول ملوكهم القش بن شطرش بن ايوب
وذلك في آخر الألف الرابع من مبدأ الخليقة . ثم اتصل
الملك لأبنه ولحافديه روملوس وأماش وهما اللذان
اختطا مدينة رومه . وذلك لأربعة آلاف وخمسمائة من
مبدأ الخليقة . وسميت باسم بانيها وسمي اهلها الروم .
وكان الروم صابئة الى ان قام قسطنطين المتدين بدين
المسيح . وقهر الروم على الدخول فيه فاطاعوه . ولم يزل
دين المسيح يقوى الى ان دخل فيه جميعُ الأُمم المجاورة
للروم . وكان منهم حكماء وعلماء بانواع الفلسفة . وكثير
من الناس يقول ان الفلاسفة المشهورين روميون . والصحيح

انهم يونانيون · ولتجاور الأُمتين دخل بعضهم في بعض واختلط خبرهم · وكلا الامتين مشهور العناية بالفلسفة الاَّ ان لليونانيين من المزية والفضل ما لا ينكر· ولغتهم مخالفة للغة اليونان · وقيل ان لغة اليونان الاغريقية ولغة الروم اللطينية· ولهم قلم يعرف بالساميا في القديم ولا نظير له · فان الحرف الواحد منه يحيط بالمعاني الكثيرة ويجمع عدّة كلمات · قال جالينوس في بعض كتبه كنتُ في مجلس عام فتكلمت في التشريح كلاماً عاماً فلما كان بعد ايام لقيني صديق لي فقال لي ان فلاناً يحفظ عليك في مجلسك انك تكلمت بكذا وكذا وأَعاد عليَّ الفاظي · فقلت من أَين له هذا فقال انه يعرف قلماً يسبقك بالكتابة في كلامك·وهذا القلم يتعلمه الخواصّ ويمنع منه سائر الناس لجلالته

واما الفرنج فهم من ولد يافث بن نوح كان يافث ولد سبعة من الولد منهم ريعات ومنه الفرنج كما في التوراة

ويقال لهم فرنسوس · وقاعدة بلادهم أَفْرَنْس (بفتح الهمزة وسكون الفاء وفتح الراء المهملة وسكون النون وبالسين المهملة) ويقولون أُفرنك على وزن افرنس وكأنّ أُفرنس معرب من أُفرنك ويقولون افرنج (و الكاف والقاف والجيم تتعاقب في كلام العرب) وملكهم يقال له الفرنسيس · وبلادهم بسائط على عدوة البحر الرومي وشماله وجزيرةُ الأُندلس من ورائهم في الغرب تفصل بينهم وبينها جبال متوعرة ذات مسالك ضيقة يسمونها البُرت · وسكان تلك الجبال الجلالقة وهم من شعوب الفرنك · وكان الفرنسيس استولوا من الجزائر البحرية على صِقِلِّية وقُبْرُس وأَقرِيطِش وجَنَوَة واستولوا على قطعة من بلاد الاندلس الى بَرْشَلُونَة وعلى رومة · وكان الافرنج ايضاً ملكوا أُفرِيقِيَة ونزلوا امصارها العظيمة مثل سُبَيْطَلَه وجَلولا ورباغية ولميس وغيرها من الامصار وغلبوا مَنْ كان بها من البربر وأدوا اليهم الجباية وعسكروا معهم في حروبهم ·

ولم يكن للروم فيها ولاية · وانما كان من كان منهم
بافريقية جندا للفرنج ومن حشودهم · وكانوا ملكوا ما
بين طنجة وطرابلس الغرب · ومن الفرنج الملك جرجير
الذي قتله العرب اوّلَ دخولهم افريقية سنة ٢٧ من
الهجرة · وكان قاعدة ملكه سبيطله وهي قبلة القيروان
على مسافة يومين · وكان الفرنج بافريقية يؤدون الى
هرقل ملك القسطنطينية لما كان الروم اغلبَ على الأمم
المجاورة لهم من جميع الجهات الى ان كان الملك جرجير
نخلع طاعة الروم وضرب الدراهم والدنانير على صورته *
ولما دخل العرب افريقية وقتلوا الملك جرجير صار التغلب
للبربر على الفرنج · واجتمع البربر والفرنج على قتال العرب ·
وما زالت الحرب سجالاً بينهم الى سنة اربع وثمانين
فانهزم البربر والفرنج هزيمةً لم يقع لهم جمعٌ بعدها · فمن
كان من الفرنج قريباً من البحر ركب الى الاندلس والى
صقلية والى سرْدانيَة من الافرنج الذي كانوا بافريقية

ومن كان بعيداً من البحر اختلط مع البربر وصاروا جملة واحدة • وفي جبل اوراس كثير من الفرنج ومن تأمل الآن سكان جبل اوراس فرّق بين البربر والفرنج • ثم اشتغل العرب بحرب الفرنج في الأندلس والجزائر ايام عبد الرحمن الداخل الأموي وبنيه بالاندلس وعبد الله الشيعي وبنيه بافريقية وملكوا عليهم جزائر البحر الرومي الى ان فشلوا وركدت ريح الدولتين وضعف ملك العرب فاسترجعوا ما اخذه العرب . ثم استفحل ملك افرانسا بعد القياصرة الاول . وكثرت عندهم العلوم الفلسفية والمعارف وتنافسوا في اكتساب الفضائل السياسية . فلم يبق لليونان والروم ذكر في هذا الزمان • لاسيما في عقد الستين بعد المائتين والألف فقد جمعوا علوم جميع الأمم من العرب والعجم وتمم الله عليهم النعمة بسلطنة الملك الشهير العادل أعلى الملوك الافرنجية همة وابعدهم صيتاً واندام يداً واطولهم سيفاً نابليون

الثالث . فانه جمع كلتهم بعد الشتات واحياهم بعد ان كادوا يصيرون من جملة الاموات ووصل حبلهم بعد البتات . وانامهم في مهد الامان بعد ما كانوا لايأمنون في بيوتهم من العدوان واشاد لهم ذكرًا وان لم يكونوا خاملين اذ بعض الذكر انبه من البعض عند العاقلين . وربحوا في يومه ما لم يربحوه في سنة غيره من الملوك . فله بذلك منة عظمى عليهم ولكن لايشكر النعمة من الناس الاّ الاكياس

واما العرب فهم من ولد سام بن نوح . وهم الأمة الرحالة الخيامُ لسكناهم . والخيل لركوبهم . والانعام لكسبهم . يقومون عليها و يقتاتون بألبانها . ويتخذون اللباس والأثاث من اوبارها واشعارها . ويحملون اثقالهم على ظهورها . و يبتغون الرزق في غالب احوالهم من الصيد وقطع الطرق والغارات على مَنْ جاورهم من الأمم . ومساكنهم ما بين البحر المحيط من المغرب الى اقصى اليمن

والهند من المشرق· وما بين ذلك كمصر وصحارى برقه وافريقية والزاب والمغرب الاقصى والسوس فما انتقلوا الاّ في المائة الخامسة · وكانت لهم دول عظيمة واثار كريمة · وصل ملكهم الى طنجة من المغرب والى سمرقند من المشرق في الجاهلية * وكانوا في الجاهلية اصنافاً · صنف اعترف بالخالق وانكر البعث · وصنف عبدوا الاصنام · وصنف عبدوا الملائكة ·وكان منهم من يميل الى اليهودية · ومنهم من يميل الى النصرانية · ومنهم من يميل الى الصابئة· وكانت بقيت عندهم بقايا من دين اسماعيل بن ابراهيم الخليل· فكانوا لا ينكحون الامهات ولا البنات ولا الاخوات ولا يجمعون بين الاختين · وكانوا يحجّون البيت ويغتسلون من الجنابة ويداومون على المضمضة والاستنشاق والسواك والاستنجاء ونتف الأبط وحلق العانة والختان · ويقطعون يد السارق ويعطون دية المقتول مائة من الابل · ويطلّقون وتعتدّ

المرأة التي مات زوجها سنة • وكانت علومهم علمَ الانساب والنجوم وتعبير الرؤيا ونظم الاشعار والخطب • وليس يصل الى احد من اهل المشرق والمغرب خبر الاَّ بالعرب • وذلك ان مَنْ سكنوا مكة احاطوا باخبار اهل الكتابين التوراةِ والانجيل • ومن سكن الحِيرة علم اخبار فارس • ومن سكن الشام عرف اخبار الروم واليونان وبني اسرائيل • ومن سكن البحرين علم اخبار الهند والسند • وكانوا يفتخرون بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والوفاء بالعهد واكرام الضيوف وعلو الهمة * روي عن شبيب بن شبَّة قال كنا في مجلس عظيم فورد علينا ابن المقفّع وكان من أشراف الفرس وحكمائهم فقال لنا مَنْ اعقل الأُمم فنظر بعضنا الى بعض وقلنا لعله يميل الى اصله فقلنا الفُرس قال ليسوا هناك • ملكوا كثيرًا من الارض وحووا عظيماً من الملك فما استنبطوا بعقولهم شيئاً • فقلنا الروم فقال اصحاب صنعة • فقلنا الصين فقال

اصحاب طرفه · فقلنا الهند فقال اصحاب فلسفة · فقلنا السودان فقال اشر خلق الله

فقلنا الخزر فقال نعم سائمة · فقلنا فمن قال العرب · فضحكنا · فقال ما اردتُ موافقتكم ولكن اذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من المعرفة · إنّ العرب حكت على غير مثال · يجود احدهم بقوتهِ و يتفضل بمجهودهِ و يشارك في ميسورهِ ومعسوره و يصف الشيءَ بعقله فيكون قدوة · و يفعله فيصير حجة ويحسّن ما شاء فيحسُن ويقبّح ما شاء فيقبح · رفعتهم عقولهم وأعزتهم هممهم حتى نالوا اكرم الفخر وبلغوا اشرف الذكر · فلما شرّفهم الله بالرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهم على هذه الاخلاق الجميلة والفضائل الجليلة تنافسوا في زيادة الفضائل وتسابقوا الى نيل العلوم والمعارف · فاكتسبوا منها ما لم يكتسبه الاوائل · وأثروا الآثار العظيمة في اقرب مدة من بناء المدائن وعمل القناطر

وفتح الخلجان · فقد أجرى موسى بن نصير البحر اثنى
عشر ميلا الى دار الصناعة بتونس وصنع مائة مركب
وغزا صقلية وأخذها · ووصل عمرو بن العاص بين النيل
وبحر القلزم في مدة سنة وجرت فيه السفن من خلافة
عمر بن الخطاب الى ما بعدَ خلافة عمرَ بن عبد العزيز
احتفره من الخليج الذي في ناحية الفسطاط وقال له
خليج امير المؤمنين وساقه الى القلزم ثم ضيّعه الولاة
وتُرِك وغلب عليه الرمل وانقطع وصار منتهاه الى ذنب
التمساح · وتيسر لهم من التصنيف في انواع العلوم ما لم
يتيسر لأحد قبلهم · حتى ان منهم من بلغت تصانيفه في
انواع العلوم ثلاثة الاف مصنف وزيادة · يحكى ان خزانة
الكتب بمصر في دولة العبيديين بلغت الفَيْ الفِ مصنَّف
وستمائة الف مصنف · وفي بعض التصانيف مائةُ مجلد
الى ثلاثمائة مجلد كتفسير الرازي وغيره · وبلغ ملكهم
حيث لم يبلغ ملك امة قبلهم من آدم الى الان ثم بدا

فيهم النقص وغيّر الله بهم حيث غيروا ما بأنفسهم شأنَ الأُمم وكلُّ شيء بلغ الحدّ انتهى

اذا تمّ شيءٌ بدا نقصهُ   فحاذرْ زوالاً اذا قيل تمّ

واما العبرانيون وهم بنو اسرائيل عنصر الانبياء فكانت عنايتهم بعلوم الشرائع وسيَر الانبياء فكان علماؤهم اعلَم الناس باخبار الانبياء وبدء الخليقة لكنهم لم يشتهروا بعلم الفلسفة * واما اهل مصر فهم اخلاط من الأُمم الا ان اكثرهم قبط . وانما اختلطوا لكثرة مَنْ تداول ملك مصر من الأُمم كالعمالقة واليونان والروم فانتسبوا الى موضعهم فكانوا في القديم صابئة ثم تنصّروا الى وقت الاسلام . وكان لقدمائهم عناية بانواع العلوم . ومنهم هرمس . كان قبل الطوفان . وكان بعده علماء بضروب الفلسفة وعلم الطلسمات والمرايا المحرقة والكيميا . وكانت دار العلم بها مدينة منف فلما بنى الاسكندر مدينة الاسكندرية رغب الناس في عمارتها فكانت دار العلم

والحكمة الى الفتح الاسلامي * والسبب الظاهر بحسب
العادة التي اجراها الله تعالى وبما دلّ عليه الاستقراء في
اختلاف الناس في عقولهم واخلاقهم ومعارفهم احوالُ
الشمس في الحركة فأنّ الناس على ثلاثة اقسام معتبرة
وفي كل قسم اقسام متقاربة . احدها الذين يسكنون
تحت خط الاستواء الى ما يقرب من المواضع التي
يحاذيها ممرّ رأس السرطان وهولاء اضعف الناس عقلاً
واوحشهم اخلاقاً وابعدهم عن المعارف العقلية والكمالات
الانسانية.واما الذين مساكنهم اقرب الى محاذاة ممرّ رأس
السرطان فعقولهم اكمل من الذين قبلهم وطبائعهم معتدلة
واخلاقهم مؤنسة كالهند واليمن وبلاد العرب كلها وبعض
المغاربة*واما القسم الثاني فهم الذين يسكنون على رأس
ممرّ السرطان الى محاذاة بنات نعش الكبرى. وهم سكان
وسط المعمورة من هذه الارض فهم اكمل الناس عقلاً
والطفهم اذهاناً كأهل العراق والشام وخراسان واصبهان

وهم مختلفون في الكمال واكملهم عقلاً واكثرهم قبولاً للمعارف سكان الموضع المعروف بأيران شهر ويليهم في الكمال سكان افرنس فانهم وسط الأقليم الخامس ويليهم في الكمال اهل الأندلس فأنّ بلادهم أخذت من الاقليم الخامس والسادس واما القسم الثالث من سكان الارض فهم الذين مساكنهم محاذية لبنات نعش وهم الروس والصقالبة فعقولهم ناقصة واخلاقهم وحشية وأذهانهم باردة بعيدة عن قبول الكمال وهم متفاوتون في النقصان فبعضهم انقص من بعض والكمال الحقيقي لله تعالى وحده وكل كمال اذا نسب اليه تعالى فهو نقص *

انتهى ما اردناه من هذه العجالة وكان الفراغ من تسويدها

في يوم الاثنين ١٤ من رمضان سنة ١٢٧١ هجرية

والحمد لله اولاً وآخراً وظاهراً وباطناً